خارج
السيطرة

طبع في لبنان

خارج
السيطرة

رواية بوليسية

عبد اللطيف ولد عبد الله

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1437 هـ – 2016 م

ردمك 978-614-02-1476-7

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
هاتف/فاكس: +213 21676179
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

«ليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار، وإنّما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان.»

عبّاس محمود العقاد [1]

(1) العقّاد عبّاس محمود، إبليس، بحث في تاريخ الخير والشرّ وتمييز الإنسان بينهما من مطلع التّاريخ إلى اليوم، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، الفجالة القاهرة، د ت، ص 6.

-1-

02 جويلية السّاعة 17:00 مساء

-معسكر-

تحت أشعّة شمس جويلية الحارقة، شعر يوسف بالضّيّق داخل سيّارته، نظر من خلال الزّجاج الأماميّ إلى شرطة الطّريق وهي تنظّم حركة السّير. وصفهم بالأغبياء ثمّ نظر إلى ساعة معصمه وكانت تشير إلى الخامسة وعشر دقائق. فتح زرًّا من أزرار قميصه الفاتح ثمّ أغلق زجاج النوافذ وشغّل مكيّف الهواء على 18°مئوية. على لوحة عدّادات السّيّارة ألصق تمثالاً صغيرًا لدبٍّ يتحرّك رأسه تبعا لحركة السّيّارة. كان تذكارا من طفلته الصّغيرة.

شعر بصداع في رأسه ففتح صندوق السّيّارة وتناول حبّة أسبرين. ثمّ سكب في فمه جرعة ماء لتنزلق عبر حلقه. لامس جبهته برؤوس أصابعه ثمّ مرّرها على شعره جهة اليمين ليحافظ على تسريحته.

بدا خلف مقود السّيّارة كشخصية حديديّة. تنمّ ملامحه البارزة عن شخصية جذابة، شعر أسود داكن وسوالف عريضة تنتهي عند شحمتي الأذن. نقر على زرّ المذياع، فانطلقت أمواج الميدي 1 عبر الهواء وسمع المذيعة تقدّم نشرة الأخبار الجوّيّة.

بعد انتظار دام خمسين ثانية، ومض الضّوء الأخضـــر أخـــيرًا. انطلقت سيّارة الكونغو طراز 2015 عبر الطّريق بســـرعة تدريجيّـــة. وبعد تخطّي عدّة مباني انحرف إلى طريق ثانويّ عن يساره، يؤدي إلى الجزء الجنوبيّ من المدينة مرورا بمحلاّت المِيزَابيِّين والكنيسة القديمة ثمّ إلى ساحة «موقادور». ألقى نظرة خاطفة على المرآة الجانبية فلمـــح سيّارة رونو خلفه مباشرة. كان ذهنه مركزا على شيء ما. لم يتوقّف عن التّفكير طوال الطّريق.

مرّت أكثر من خمس دقائق منذ أن لاحظ تلك السّيّارة وراءه، كان يلتفت إلى أي شيء يجذب الانتباه. في الأخير لعل السّيّارة تتجه إلى نفس المكان، فالمدينة صغيرة وقد يلتقي المرء بأناس خـــلال يـــوم واحد أكثر من مرة.

كان ممّا لفت نظره إليها أنها من طراز أصبح نادرا هذه الأيّـــام، رونو R18، "من يرغب في هذه الخردة؟" خاطب نفسه.

على بعد شارعين أبطأ من سرعته وركن السّيّارة على جانـــب الطّريق. ترجّل منها وقصد كشكا صغيرا لبيع التبغ والجرائد. بانـــت قامته الفارهة وهو يمشي على الرصيف الإسمنتي بحذائه الأسود اللاّمع. كانت خطواته ثابتة تضاهي مشية عسكريّ، وأضفت بذلته الرّسميّـــة على هيئته جاذبية لا تقاوم. اشترى علبة مالبورو والجريدة اليومية، ثمّ عاد إلى السّيّارة وانطلق مرة أخرى. تنهّد بارتياح عندما بدأ يـــدخن أول لفافة تبغ، كانت تلك العلبة الثّانية لهذا اليوم.

شدّ قميصه داخل الحزام وأعاد ضبط هندامه بعنايـــة، كانـــت المنطقة الثامنة خاملة في ذلك الوقت، رَنَا ببصره إلى شرفة في الطّابق الثالث من إحدى العمارات. دبّ النشاط في جسمه وشعر بالحيويـــة

وهو يرتقي السُّلّم صعودا إلى الطّابق الثالث. انعطف يمينا وهو يحمل في يده علبة من الفراولة، اشتراها من محلّ البقالة قبل دقيقتين. تقــدّم بخطوات ثابتة نحو نهاية الممرّ.

ضغط بطرف أصبعه على الجرس وانتظر. وبعد قليل سمع وقــع أقدام تقترب، فتح الباب عن امرأة جميلة بدت من خــلال تعــابير وجهها أنها توقعت هذه الزّيارة. تنحّت جانبا عن مدخل الباب وقد سرت على شفتيها الممتلئتين ابتسامة مرحّبة. دلف إلى الدّاخل وأغلق الباب من جديد.

-2-

04 جويلية السّاعة 15:00

المنطقة الثامنة -معسكر-

ثلاث سنوات مضت منذ أن رآها لآخر مرّة. شعر بالمرارة والحنق يخنقانه، وهو يرسل بصره إلى الشُّرفة في الطّابق الرّابع، حيث نُشر الغسيل. لم يظفر إلا بمشهد حمّالات الصّدر وجُبّتين وبعض السّراويل القطنية، ولكن ما لفت انتباهه هناك، أنّه رأى قطعا صغيرة من القماش تتدلّى أيضا من الحبل وبدت لطفل في الثالثة من عمره. هل يمكن أن يكون ابني؟ ولكن الطّلاق تم داخل السّجن، أي منذ سنتين ونصف. الحقيرة تركتني وذهبت لتعيش مع رجل آخر.

يستحيل أن يكون ابنهما، فلو كان كذلك لكان سنُّه الآن لا يتجاوز السَّنة والنّصف. تأجّجت نار الغضب بداخله ولكنّها خمدت بمجرّد التّفكير في ذلك الطّفل الصّغير، داعب الأمل عقله وعاد يتساءل، أترى ذكر هو أم أنثى؟. لم يكن يدري ما الّذي جاء به إلى هذا المكان، فتلك امرأة لم تعد حِلاًّ له ولا هو حِلٌّ لها. ولكنّه لا يستطيع أن يشكم فضولَه، ولا أن يمنع تفكيره، في امرأة ذادت عنه عند الشدّة ثمّ تعلّقت برجل آخر. لم يستطع تخيُّل شكله أو التّكهُّن بشخصيّته ولا حتّى معرفة اسمه. كلّ ما كان يعرفه أنّه أصبح بسببه رجلا مُطَلِّقًا.

غادر موقفه مجبرًا خوفا من أن يتعرّف عليه أحد هنـــاك، كـــتم دموعه المستفيضة وأجّلها إلى وقت لاحق. ما عاد يستطيع لملمة حياته من جديد. جرّ خطواته المتثاقلة، وفي ظلّ غياب وعيه بالحاضر واصل سيره من غير وجهة معيّنة، تقوست كتفاه إلى الأمام وارتخت يـــداه بجانبيه؛ لم يبق له شيء يهتمّ به في هذه الحياة...

مضى إلى محطّة الحافلات، وانضمّ إلى البروليتاريا –على حـــدّ تعبيره – الّتي بدأت تتكتّل في مجموعة واحدة، لركوب الحافلة. صعد على متنها، فألفاها مكتظّة بالرّكّاب تكاد تلفظهم لشدّة تكدّســـهم بها، ثقل الهواء في الدّاخل وامتزجت روائح التّعرُّق برائحة السّـــمك المتعفّن المنبعث من إحدى القفف. كان التحرّك داخل الباص عسيرًا؛ سُدّت جميع الثّغرات بأجسام مترهّلة. بذل جهدا غير يسير ليدسّ يده في قعر جيبه، وقام بدفع ثمن تذكرته، وبعد عدّة نقاط توقّف، طلـــب النّزول في «سيّدي سعيد».

-3-

عدّل ربطة عنقه، وألقى على هندامه نظرة متفحّصة مـــن خـــلال مرآة السّيّارة. ردّد أغنية قديمة للشّاب خالد "وَعْلاش تلوموني" مســـح جبهته في حبور، مستمتعًا بذكريات السّاعة الماضية، دخل مقطّبا وخرج مبتسما، يا للنّساء!! تغيّرت سُحنته بالكامل وهو الآن يقود سيّارته عـــبر الطّريق متّجها نحو بيته. نقر على المقود بأصابعه وهو يردّد مع الأغنية

"وعلاش تلوموني... وعـــلاش تلومـــوني قلبـــــي بغاهـــا... وكرهتوني".

مرّ بحي «الفيلاّت»، وتخطّى مسجد «مصعب بن عمير»، ولّمـــا انعطف على يمينه سطع ضوءٌ باهر، ملأ عينيـــه فجـــأة، لم يســـتطع التّعرُّف على السّيّارة من خلال المرآة، فقد وخز الضّوء عينيه بشدّة. اضطرّ إلى التخفيف من سرعته ثمّ توقف عند إشارة المرور. رأى من خلال المرآة الجانبية أن تلك السّيّارة اختفت تماما.

كان الهدوء يعمّ الحيَّ الإداريّ برمّته، وأوشكت السّاعة علـــى بلوغ الحادية عشرة والنّصف ليلا. نزع يوسف حزام الأمان قبـــل أن يوقف السّيّارة، وهي من العادات السيئة الّتي اكتسبها مؤخّرًا. نظـــر إلى ساعة «التّيسو» في معصمه ثمّ عقف يده وفرك جبهتـــه بأصـــابع متوتّرة. أخذ يوطّن النّفس ككلّ ليلة للقاء زوجته. توقّف المحرّك عن الهدير، ظهر جوربه الأسود وهو يضع رجلا خارج السّيّارة. ألقـــى

عقب السّجارة الأخيرة على الأرض، فسحقها برجله وأغلق بـــاب السّيّارة. وما كاد يستدير حتّى رأى شبح شـــخص يقـــف أمامـــه. سكنت رعشة قوية كامل جسده، ووقف مبـــهورا، أمـــام المشـــهد المرعب. كان الشبح يقف على بعد متر فقط. وغمغم يوسف قائلا:

"مراد؟"

ندت عنه ابتسامة متوتّرة وهو يحاول ضبط أعصابه عبثا.

"ماذا تفعل هنا؟!".

كان مراد في السّابعة والثلاثين، يميل إلى القصر مع نحافة الجسم وضالّته، أسمر البشرة مع لحية قصيرة متفرّقة على ذقنـــه وجانبـــي فكّيه، في خدّه الأيسر شامة سوداء، قلّلت من شحوب وجهه. دامت لحظات صمت مرعبة. تخلّلها وميض عمـــود الإنـــارة الوحيـــد في الشّارع. بدت عيناه في الظّلام كحفرتين في وجهه. تكلّـــم الرّجـــل وقال بنبرة تحمل في طياتها كرها دفينا:

"ماذا أفعل هنا؟ ربّما لم أسجن مدّة كافية؟".

وقف يوسف مشدوها أمام هذا الموقف الغريب وقال مـــداريا ارتباكه

"لا لم أعنِ هذا يا مراد؟"

ازدرد ريقه بصعوبة ثمّ أضاف:

"أعلم أنّك غاضب الآن، ولكن هذا لن يغيّر من الأمر شـــيئا. انظر إلى المستقبل"

"ثلاث سنوات انتزعت من حياتي، ثمّ تتكلّم بكـــلّ حقـــارة، لتخبرني أن أواصل حياتي؟!"

صمت برهة وحدجه بنظرة كالسّهم وكأنّه يقول له:

"أعلم أنّك تراوغ"، وواصل يقول: "تريد التّخلّص منّي مجـــدّدًا كما فعلت سابقا. هه؟! أو تريد مني أن أغضّ الطّرف عمّا جـــرى لأواصل حياتي بكلّ بساطة وكأنّ شيئا لم يحدث؟!"

ضحك مراد بعصبيّة مفرطة

"أريدك أن تواصل حياتك، لا أن تهدرها في المشاكل، سنتكلّم لاحقا إذا شئت"

وهمّ بالمغادرة ولكن مراد اعترض طريقه بحزم وبقـــي ثابتـــا في موقفه لا يريم.

"مراد أرجو أن تخلي سبيلي الآن، الوقت متأخّر".

تبدّلت نظرة مراد بعض الشّيء وبدا وكأنّه سيكشف عن شيء ما.

"كلانا يعلم أنّي بريئ. ستحاكمون قريبا عندما يحين الوقت"

قطع كلامه أزيز سيّارة حادّ. مزّق سكون الحـــيّ، رأى أثنـــاء ذلك مراد وهو يبتعد بخطوات قصيرة، أخذ ظلّه يتداخل ويتمازج مع العتمة الّتي سلكها واختفى شبحه وسط الظّلام.

كانت تقترب منه بسرعة جنونية. رنّ هاتفه في تلك الأثنـــاء، دسّ يده في قعر جيبه ليجيب. وفجأة امتلأ المكان بنور ساطع، ثمّ سمع صوت الإطارات وهي تحتكّ بعنف على الأرض. تسارعت نبضـــات قلبه مع تسارع الأحداث، تيبّست قدماه وكأنّهما عمـــودان مـــن الخرسانة المسلّحة، فغر فاه ولم يكد يصدّق ما تراه عيناه. برزت من نافذة السّيّارة ذراع طويلة امتدّت نحوه، ورأى فوهة المسدّس تصوب باتجاهه. تبدّى له في تلك الثواني القليلة شريطُ حياته بالكامل، ومـــرّ أمامه كومضة شعاع خاطف.

انقشع الضّباب من عينيه وتراءى له المشهد كاملا مجسّما، كان بطلا لنهايته التراجيدية. انطلقت رصاصتان من المسدّس. حاول الابتعاد قبل االأوان ولكن ولات حين مناص. اخترقت الرّصاصتان صدره اختراقا، وسقط على الأرض قابضا على صدره المضرّج بالدّماء.

استمرّ رنين الهاتف من مكان ما على الأرض، وانطلقت السّيّارة مسرعة عبر الطّريق، ثمّ اختفت في لمح البصر. ظهرت بقعتان من الدّم على قميصه، وسرعان ما ازداد حجمهما، التقتا بالخاصّية الشّعريّة، لتشكّلا بقعة واحدة كبيرة. ارتعش كامل جسده وكان صدره يعلو وينخفض بصعوبة، في تلك الثواني بدأ يفقد الإحساس بأطرافه شيئا فشيئا، وبعد لحظات انطفأت حرارة جسده المسجّى و لم يبقَ إلا أثرها، كفرن يصدر لفحات بعد إخماد ناره المتوقدة. تجمّع الدّم حوله وشكّل بركة صغيرة حمراء ما زالت مزبدة. انتفضت روحه فلفظ آخر أنفاسه في تلك اللّحظة وودّع الحياة.
استمرّ الهاتف في الرّنين...

-4-

كان يقف على شاطئ البحر متأمّلا زرقته الدّاكنة والسّماء الصّافية تتخلّلها بعض السّحب الرّقيقة. غمرته أشعّة الشّمس الدّافئة بإحساس مريح، وملأ صوت البحر أذنيه برنين عجيب. رأى خطّ الأفق وهو يربط بين السّماء والبحر في ذلك المشهد الهادئ. بسط يديه في الهواء وأغمض عينيه.

أحسّ بالاطمئنان والهدوء، ثمّ بالحياة وهي تسري في جسده. فتح عينيه مرّة أخرى، وتبدّل المشهد فجأة؛ أظلمت السّماء وأصبح لون البحر حالكا. نكص على عقبيه مرتعبا لإحساسه بالخطر. زاد البحر من هوله، فبرزت من الأعماق موجة هائلة، غطّت السّماء والأفق وحجبت ضوء الشّمس عن الأرض، وارتفعت حتّى كادت تلامس السّماء.

غاصت قدماه في الرّمال وعجز عن الحركة فجأة. أخذ يصرخ بشدّة وعيناه تطلقان الدّموع من دون أن يدري. مالت الموجة كالطود العظيم، وشكّلت ذنَبا شائلا وكأنّها شيطان مارد، يوشك أن ينقضّ عليه، وما زال يصرخ ويصرخ حتّى غمرته المياه، وتحوّلت صرخاته إلى فقاعات. حاول الصعود إلى السّطح عبثا، منازعا الغرق والموت معا، تخبّط في العمق حتّى أصبح عاجزا واستسلم للموت أخيرًا، كانت سكرات الموت عنيفة ومؤلمة، وفي تلك اللّحظة العسيرة

شعر بيد ضخمة تمتد نحوه وتنقذه من الموت المحتمّ. بدأ يطفو نحو السّطح، والنّور يزداد وضوحا والأمل يكبر شيئا فشيئا... استيقظ لاهثا، مبهور الأنفاس، مرتعش الجسد رغم حرارة الجوّ داخل الغرفة وهدوء المكان.

كان يتعرّق بشدّة، والهاتف يرنّ. قوّم نفسه على السّرير واستردّ شيئا من سكينته، ألقى نظرة متفحّصة على الغرفة وكانت السّاعة الرّقمية فوق المنضدة تشير إلى الواحدة صباحا، كان الحلم مزعجا، لقد تفنّن عقله الباطنيُّ في ترويعه. مسح وجهه المبلل وانخرط في الاستغفار والتّعوّذ من الشيطان. كان الهاتف لا يزال يرنّ. تمطّى في فراشه بكسل ثمّ مدّ يده فوق المنضدة وتناول الهاتف.

كان المتكلّم في مكان يعجّ بالفوضى. نظّف أحمد حنجرته وقال:

"ألو. من معي؟" كان صوته خشنا نوعا ما.

"ماذا حدث.. متى، اليوم؟"

"نعم... أين؟... نعم.. آه.. حسنا سأوافيك هناك"

أقفل الخط وعاد الصّمت ليطبق على الغرفة من جديد، وومض في ذهنه فجأة ذلك الحلم المزعج. عاصفة مرعبة كادت تبتلعه لولا تلك اليد العجيبة. لم يكن يعوّل كثيرا على تفسير الأحلام ولكن هذا الحلم بقي أثره راسخًا في ذهنه.

نهض من مكانه بعد الانتهاء من المكالمة، ومضى نحو الحمّام. انكفأ على الحوض يغسل وجهه، مضمض فمه بالماء ليتخلّص من حموضته، وألقى على المرآة نظرة متفحّصة، رأى وجها لرجل في

الخامسة والثلاثين، ذا بشرة سمراء وعينين بنّيّتين تنمّان عـــن الـــذكاء والجرأة، فوقهما حاجبان دقيقان وجبهة عريضـــة. جفّـــف وجهـــه بالمنشفة، ثمّ رجع إلى غرفته مسرعًا. ارتدى ملابسه وســـرّح شـــعره الأسود القصير برؤوس أصابعه. ولمّا همّ بالخروج تذكّر شيئا. عاد إلى غرفة النّوم وبحث في درج الخزانة. وأخيرًا وجد المسدّس هناك فالتقطه ثمّ خرج مسرعا.

-5-

طوقت الشّرطة المكان بالأشرطة. وانعكس وميض العلاقات الضوئية، وشعاع اللمبات الحمراء، على مسرح الجريمة. كان هناك العشرات من أزواج الأعين، المحدّقة إلى المكان الّذي يلقى فيه الرداء الأبيض على جثّة رجل ميت. سيطر الرّعب على قلوبهم. في حين عملت الشّرطة على إبعادهم وتشتيتهم، تناوش الشّرطيّ على الحاجز مع أحد المواطنين وفضّ النزاع بعد تدخل شرطيّ آخر. في تلك اللّحظات، كانت الشّرطة تنتشر على كامل تراب المدينة، وعملت على غلق جميع المنافذ والطرق، لإقامة حواجز أمنيّة لتفتيش السّيّارات.

بدا المكان كورشة عمل بعد وصول الشّرطة العلميّة، الّتي شرعت بتفتيش ومعاينة مسرح الجريمة. وضعت علامات على بعض الأماكن، وقام شرطيّ آخر بتصوير الجثّة وما يحيط بها. وفي تلك الأثناء اقترب علي بن ذهيبة من المصوّر، ثمّ أمره بالتقاط صور لآثار العجلات المطّاطية على الطّريق. كان عليّ صارمًا ونشيطا، كما يفترض بمفتّش الشّرطة أن يكون، غير أنّ شفته العليا كانت منتفخة أكثر من اللاّزم، وظل يفرك عينيه لعدّة مرات، كان يتميز عن الآخرين بحدّة نظرته، وبرودة عينيه، كما استطاع أن يكسب لنفسه هيبة لا يستهان بها، عن طريق الزجر والقسوة في بعض الأحيان. غير

أنّه كان رجلا طموحا، توّاقا لاعتلاء المناصب، ولو علـــى ظهـــور الآخرين، لا يتوانى في اقتناص الفرص لصالحه، واستطاع بفضل لباقته تملق رؤساءه والوصولَ إلى ما وصل إليه اليوم.

اختلس نظرة إلى مجموعة من النّاس، كانت تقف عـــن كثـــب لمشاهد ة ما يحدث، فوقع بصره على رجل، كان يتبادل الحديث مع شخصين آخرين. حاول شرطيّ ردع امرأة، أرادت أن تقترب مـــن الجثّة. عرف من خلال صراخها أنها زوجة الميّت. سقط الخمار على كتفيها فبرز شعرها الأشقر وهي تحاول الارتماء على زوجها. في حين انضمّت إليها شرطيّة لتهدّئ من روعها، ولكنّها واصلت النّحيـــب، فسقطت مغشيًّا عليها، ونقلت على إثرها إلى المستشفى.

"وكيل الجمهوريّة وصل. سيّدي "تكلّم الشّرطيّ الأقرب إليه. ولمح بن ذهيبة قديرو معمّري، ينزل من سيّارة سوداء، من طراز بولو 2011. كانت بشرته كلون طلاء السّيّارة، ذو شعر مجعّـــد وجبهـــة بارزة وذقن حليق بعناية زائدة. وقف الرّجل أمام المفـــتّش، وكـــان يفوقه في الطول بعض الشّيء، إلا أن كليهما كان يميل إلى القصـــر. وأخذ يحدّق من وراء كتفيه إلى الحشد، ثمّ ما لبث أن استقرّت نظرته الجامدة على بن ذهيبة.

"سيّدي، مرحبا"

تكلّم عليّ بمذلة وهو يرفع يده صوب صدغه لإلقاء التّحيّة.

لم يردّ قديرو على التّحيّة، وسأله دون مقدّمات.

"من الضّحيّة؟"

"يوسف قدادرة مدير مؤسّسة البنـــاء. أصـــيب بطلقـــتين في صدره."

تذبذبت عيناه في المكان، متفرّسا في الوجوه، ثمّ استقرّتا على بن ذهيبة أخيرًا.

"هل كلّ المجموعة حاضرة هنا؟"

"نعم سيّدي الشّرطة العلميّة تقوم بواجبها، وسنسهر أيضا على حفظ الأدلّة كما هي". نظر مرة أخرى وراء كتفي المفتّش، ثمّ التفت نحو الجثّة ودون أن يرفع نظره عنها قال بنبرة قاسية تدلّ على عدم التوافق بينهما.

"ما تقييمك للوضع؟" بدا السّؤال مربكا، ولو أنّه أتى من شخص آخر لكان الجواب هيّنا.

"تلقّينا مكالمة من أحد الأشخاص، يخبرنا فيها أنه سمع دويًّا مرعبا، وكان ذلك حوالي الحادية عشر والنّصف، وعندما وصلت عناصرنا إلى المكان وجد الرّجل مقتولا، ولكن الطّبيب الشّرعيّ سيضبط لنا توقيت الوفاة."

حكّ قديرو معمّري ذقنه الحليق وتكلّم بنفاد صبر:

"هل لديكم مشتبه بهم؟" أحسّ بن ذهيبة بالتّنافر بينهما. فكّر بهدوء ثمّ أجاب بتؤدة:

"ليس بعد، نحن نجمع الأدلّة، وبثثنا العيون بين النّاس" صمت كلاهما فترة قصيرة ثمّ عاد يقول على سبيل المداهنة:

"سنعمل بجهد أكبر، للحصول على النتائج المرجوّة في ظرف أربع وعشرين ساعة. ستنقل الجثّة إلى المشرحة بعد دقائق، وسنحصل غدا على تقرير الطّبيب الشّرعيّ"

وليوضح أكثر قاده بمحاذاة أثار العجلات، مبينا المسار الّذي سلكته سيّارة القاتل، والزّاوية الّتي سدّد منها الرّصاص.

"غدا صباحا، أريد تقريرًا مفصّلا عمّا وصلتم إليه من نتـــائج، ومن الآن فصاعدًا وافِنِي بكلّ صغيرة وكبيرة، أريد للقضـــيّةأن تحـــلّ بأسرع ما يمكن"

ارتبك عليّ ونُضِح وجهه بالدّم. لقد انتبه معمّري إلى شـــاربه المنتفخ، وكان أكثر ما يخيفه، أن ينهره أمام أفراد الشّرطة الّذين هـــم تحت إمرته. تراجع خطوات غير متزنة إلى الخلف، واجتنب النّظر إليه مباشرة.

همّ معمّري بمغادرة المكان، ولكنّه توقّف فجأة، حانـــت منـــه التفاتة إلى الوراء. فرأى المفتّش ينتزع من فمه شيئا ويقذف به علـــى الأرض. تسمّر في مكانه واقفًا، وبدأ طرف عينه اليسرى يرتعش.

"أيها المفتّش." دوّى صوته كالرّعد، التفت بن ذهيبـــة نحـــوه مصعوقا، ففر الدّم من وجهه وابيضّ لونه.

"كيف تتجرّأ على رمي قاذوراتك هنا؟"

دقّ قلبه بعنف، ارتعدت ركبتاه وتفصّد العـــرق مـــن جبينـــه المنكمش عن خطوط متعرّجة. فتح بن ذهيبة فمه ليتكلّم.

"آسف... يا سيّدي..."

"ما هذا؟! هل أنت في إصطبل؟! قـــل لي أرجـــوك! كيـــف أصبحت مفتّشا بهذه الطّريقة؟!"

هزّ معمّري رأسه آسفا «حمار... حمار في إصـــطبل!» همـــس لنفسه ثمّ غادر المكان.

سكن روع بن ذهيبة بعد انصراف «معمّري»، وكاد ينسى ما حدث بالرّغم من قوّة أعصابه، ولطبعه اللاّمبالي، ولكنّه بـــات الآن يواجه أمرا بالغ الخطورة، وهو رأي عناصر الشّرطة فيه، وخاصّة بعد

انتكاسته هذه. لعنهم في سرّه، وبالطّبع كان الأمر متوقّعًا. فقد تجاهل الآخرون ما حدث، وكأنّهم لم يكونوا هناك. فوّحت رائحة التبـــغ لدى إشعاله لفافة، ضغط عليها بين شفتيه الغليظتين، وأطلق ســـحابة من الدّخان. بدا مظهره تحت الأضواء الزرقاء والحمراء، كعفريت في زي بوليسي.

-6-

كانت السّاعة تشير إلى الثالثة وخمس وعشرين دقيقـــة، حـــين جلس عليّ وراء مكتبه. ينقر على سطح المكتب بأصـــابع متـــوتّرة، وينظر إلى الباب المغلق دون أن يرى شيئا. رنّ الهاتف في تلك اللّحظة ممزّقا هدوء الغرفة الثّقيل. استردّ إحساسه بالحاضر والتقط السّمّاعة.

"اسمح له بالدخول" أجاب بن ذهيبة. وبعد مرور أقلّ من دقيقة نقر شخص على الباب.

"تفضّل..."

فتح الباب عن رجل طويل القامة، قويّ العظام. يرتدي سروالَ «كاكي» أبيضَ، وقميصًا أزرقَ باهتًا، برز مـــن خلالـــه ســـاعداه المفتولان وصدره العريض. تقدّم نحوه بخطوات ثقيلة، وألقى بنفســـه على كرسيّ أمام المكتب

"ما رأيك أحمد؟"

"في الحقيقة يبدو الأمر معقّدا بعض الشّيء، وغير منطقيّ أيضا"

"يبدو أنّك تعلم شيئا أجهله؟"

نظر إليه مباشرة يترقّب الجواب في لهفة.

"حسنا، علمت من خلال محادثتي مع بعـــض الأشـــخاص، أنّ الضّحيّة شوهد مع رجل قبل وفاته بلحظات قصيرة، وكـــان ذلـــك حوالي السّاعة الحادية عشر والنّصف. وحسب شاهد آخر قال أنّـــه

رأى الرّجل تزامنا مع إطلاق النار. ولكني أشك في صحة أقواله. لأن إطلاق النار كما قال شاهد آخر، تزامن مع مرور سيّارة سوداء من طراز رونو R14 سنة 1985، والّتي رآها فيما بعد تنطلق كالسّهم. لكن لم يتعرّف أحد من هؤلاء على هوية القاتل الفعليّ، وكلّ هذه الأقوال تبقى مجرّد افتراضات"

"إذن لدينا أكثر من مشتبه به في هذه القضيّة؟"

شابك عليّ بين أصابعه مفكّرا...:

"أوّلا وقبل كلّ شيء. يجب معرفة هويّة ذلك الشّخص، وماذا كان يفعل مع الضّحيّة، وإذا أردت رأيي صراحة، أظنّه متورّطا في الأمر."

لم يتحرّك أحمد طيلة فترة جلوسه، وظلّ صامتًا فحثّه عليّ على التكلّم.

"ما رأيك أنت؟"

"لا أظنّه غبيًّا إلى هذه الدّرجة، ليضع نفسه في موقف حرج كهذا، أرى ألاّ نستبق الأحداث"

"آه. تذكّرت أمرا آخر. وجدنا مع الأدلّة هاتفا محمولا، سقط من يد الضّحيّة عند وقوعه على الأرض. تفحّصنا المكالمات ووجدنا أنّه تلقى في الدّقائق الأخيرة اتّصالات متتالية"

"وهل عرفتم صاحب الرّقم؟"

"المتصل فضّل حجْب رقمه، ولكننا سنكشف مصدره غدا بحول الله"

ألقى عليّ ظهره على مسند الكرسيّ ووضع يديه فوق بطنه وقد تجلى القلق في ملامحه.

"سيذاع الخبر غدا في جميع القنوات التلفزيونية، وستصوّب نحونا الأنظار، السلطات المحلية لن تقف مكتوفة الأيدي أحمد. الأمر يعنيها من الدّرجة الأولى لذلك علينا تقديم حلول سريعة مهما كلّف الأمر"

تحسّس بن ذهيبة جيبه ثمّ أخرج لفافة تبغ، رمى العلبــة فــوق سطح المكتب. أشعل السّجارة وأخذ نفَسا عميقا. نفث الــدّخان في الغرفة متتبعا أثره في الهواء بعينيه الضّيّقتين، التفت نحو أحمد الّذي بدأ يتكلّم فأنصت باهتمام.

"من المحتمل جدًّا أن يكون له أعداء، ومبدئيًّا سننطلق من هــذه الفكرة. سأستجوب زوجته هذا الصّباح، عسى أن تتّضح الأمــور. واكتشاف السّيّارة المجهولة سيساعدنا على تعقّب القاتل، ولكــن لا تعوّل على الحلّ الثّاني كثيرا، لأنّه سيستغرق أسابيع أو أشــهرا قبــل اكتشافها."

غادر أحمد مكتب المدير. في الخارج وفي الثلث الأخير من اللّيل أطلق صدره للهواء المنعش، أصغى لأوّل نداء في هذا اليوم. كان نداء المؤذّن.

-7-

كانت الشّمس لا تزال منخفضة، والسّماء صافية، يوم طويل آخر من شهر جويلية الحارق، وكانت الحُصُر قد فرشت على الإسفلت داخل القيطون ليجلس عليها «الطُّلبة» لتلاوة آي من القرآن الكريم.

علّقت المصابيح فصُفّت في خيط كهربائيّ شدّ بعضها داخل القيطون من الأعلى، وأكثرُها هُيّئ لإنارة الشّارع ليلاً.

كان أحمد يمقت جوّ الجنائز، المليء بالرّياء والنّفاق، مجالس تستباح فيها النّميمة وتطلق فيها النّكت، لم يستغرب قلّة حضور النّاس، لأن اليوم خميس والوقت لا يزال ضحى. بحث عن أقارب المتوفَّى، واهتدى في الأخير عن طريق شخص كان هناك إلى رجل، كان محاطا بنفر من النّاس لمواساته، قال أنّه أخ الأرملة. مضى نحوه بتوتّر، ولم يعرف ماذا يفترض به أن يفعل، هل يقدم على تعزيته أوّلا، أم على تقديم نفسه؟ تقدّم ببطء، لفّ يده حول الرّجل، وانغرز عظم كتفه اليمنى، داخل صدر أحمد العريض. اختفى الرّجل تماما. ثمّ ظهر مرة أخرى حين ابتعد أحمد عنه.

"عظّم الله أجرك".

"أجرنا وأجركم، إن شاء الله" لاحظ أحمد من خلال عينيه الزرقاوين، تعبا، حزنا وتفكيرا.

"أودّ التّحدّث معك دقيقة، لو سمحت"

تنحّى الرّجلان جانبا، فرأى أحمد حركة الرّجل المضطربة ونظرته المترقّبة الّتي رمقه بها. أخرج بطاقة الشّرطة ووجّهها إليه.

"أنا مكلّف بالتّحقيق في قضيّة مقتل يوسف، رحمه الله"

صمت قليلا ليرى تأثير كلامه على تعابير وجهه، كان الرّجل هادئا. فاستطرد قائلا:

"أريد طرح بعض الأسئلة فيما يتعلّق بالقضيّة"

هزّ الرّجل رأسه وواصل أحمد:

"علمت أنّ له زوجة وطفلة صغيرة، أليس كذلك؟"

هزّ الرّجل رأسه موافقًا.

"الله معهما، الّذي خلق لن يضيّع، يا أخي. ما اسمك؟" تفرّس في ملامح الرّجل وكان التّعب باديا عليه.

"خليل.. خليل الشّيباني"

"خليل، يجب أن أكلّم زوجته، أريد طرح بعض الأسئلة فيما يتعلّق بوفاة زوجها".

رأى أحمد تردّدا قصيرًا، طرأ على ملامحه:

"إنّها في حالة يرثى لها، أنت تعرف... حسنا. أمهلني دقيقة"

اختفى خليل، ثمّ عاد بعد دقيقة، فسأله أحمد وهما في طريقهما نحو البيت:

"متى موعد الدّفن؟"

"غدا بعد صلاة الجمعة"

كانت تجلس على أريكة تتوسّط الجدار المقابل لمدخل الباب، في منظر كئيب، تنتظر قدومهما، وقفت طفلة صغيرة بين يديها، تلفّ

ذراعها حول دميتها، وحالما رأت القادمين، وخزت أمّها وأشـــارت نحوهما.

"ماما.. ماما. رجال دخلوا"

كانت الدّمية تتدلّى من يدها الصّغيرة، في حين لاحـــظ أحمـــد أن إحدى عينيها مفقودة. انتبهت المرأة للوافدين، فأطرقت حياءا. كانـــت تتلفّع بملاءة سوداء، أضفت على بياض بشرتها نقاءا. تدلّت خصـــلات من شعرها الأشقر نحو جبهتها. سوّت الخمار بحركة رشيقة، وسترت ما برز منه. كان أنفها الصّغير محمرًّا، ووجهها شديد الاصفرار، انتفخـــت المنطقة المحيطة بمحجريها، وبرزت خطوط حمـــراء في بيـــاض عينيهـــا. طأطأت رأسها حياءا وأخذت تمرّر منديلا ورقيًّا على أنفها. استمدّ أحمد من وجهها نظرة خاطفة، فظهرت له عينان زرقاوان كلون البحر. تيقّن أحمد أن الرّجل الجالس بجانبه طبق الأصل لهذه المرأة.

"سيّدتي، عظّم الله أجركم وأحسن ثوابكم، إنّا لله وإنّـــا إليـــه راجعون"

ازدادت انحناءة ظهرها تقوُّسا عند سمـــاع الكلمـــة الأخـــيرة، تشاغلت بالنّظر إلى أصابع يديها المتوتّرة.

"آمين.. آمين يا رب..." اختنق صوتها وهي تحاول التكلّم.

بدت الطّفلة الصّغيرة حائرة فأحسّـــت بالضّـــيّق، واختلجـــت شفتاها. شدّت طرف ملاءة أمّها، واســـتنجدت بصـــوت مرتفـــع "ماما.. ماما.. مالْكِي... ماما" سقطت الدّمية على الأرض ووضعت يدا على وجهها ثمّ انخرطت في بكاء صارخ.

أومأت إلى شقيقها ليأخذها خارج الغرفة. فقاومـــت الطّفلـــة خالها بعناد، وتشبّثت برداء أمّها، فسحبت الرّداء معها وكُشف أسفلُ

ساق أمّها. سترت نفسها بسرعة. استردّت رباطة جأشها، عنـــدما غابت الطّفلة عن ناظريها.

"هل لديك فكرة عن المكان الّذي كان متواجـــدًا فيـــه قبـــل مقتله؟"

"لا. لا أعلم" صمتت قليلا ثمّ أضـــافت متـــأثّرة "لم يســـمع كلامي حين طلبت منه الرّجوع باكرا" بدا وكأنّها لم تسمع ســـؤاله جيّدا.

"لا بأس سيّدتي، إنه المكتوب ولا مناص من قدر الله"

صمت برهة لتستردّ المرأة هدوءها.

"هل كان له أعداء؟"

رفعت الأصابع المرتعشة نحو فمها.

"لا"

نطقتها بنبرة لا تشجّع على التّحدّث.

"هل أنت متأكّدة، سيّدتي؟"

كان يرى بوضوح مسحة الحزن تحت حاجبيها الدّقيقين.

"نعم. زوجي... كان طيّبا، لم يدع أحدا يحقد عليه"

تكلّمت بشي من الهدوء، متغلبة على انفعالها.

"سيّدتي إن أي معلومات تعرفينها، قد تساعدنا في القضيّة"

اتّكأ بكوعيه على ركبتيه ومال بجسمه إلى الأمام.

"ما الفائدة هه؟. لقد فات الأوان. هل تستطيع هذه المعلومات إرجاعه إليّ؟ خلاص مات وفات الحال"

أراد تدارك الوضع والتّشبّث بآخر أمل للحصول على المعلومات اللاّزمة.

"أعلم أنّ الأمر عسير، ولكن المجرم لا يزال طليقا، قد تنقـــذين أشخاصا آخرين، بمساعدتنا".

انتبه في تلك اللّحظة إلى خليل الّذي كان يلهث عند عودتـــه، تعالى صوت الطّفلة من مكان ما داخل المنزل قبل أن يغلق الباب مرّة أخرى، مسحت المرأة دموعها بمنديل ورقيّ وقد احمـــرّت شـــفتاها بشدّة. اكتفى أحمد بهذا القدر من الأسئلة ورأى أنّه من الصّواب ترك المرأة لتودّع زوجها كما يليق.

"شكرًا على صبرك معي، انتهينا من الأسئلة"

غادرت المرأة الغرفة وتركت المجال لحديث الرّجال.

أحاط الغرفة بنظرة متفحّصة، كان أثاثها مرتّبًا بشـــكل أنيـــق ومتناسق، جدران مطليّة باللّون الأبيض وأرضيّة مفروشـــة بســـجاد مغربـــي، ويتدلى من السّقف فانوس به مصباحان، وستارة حريريـــة أسدلت على النّافذة الوحيدة في الغرفة.

"اعذرنا، لا تزال تحت تأثير الصّدمة".

أخرج علبة السّجائر من جيب صدره، تناول لفافة تبغ وبحـــث عن الولاّعة في جيب سرواله ولكن يد أحمد امتدّت نحوه قبل أن يعثر عليها، قدح الولاّعة وأشعل لفافته.

"لا عليك، أتيت في الوقت غير المناسب"

قدم له خليل علبة السجائر وتناول أحمد منها لفافة.

"أستطيع مساعدتك إذا أردت، أعرف زوجها جيّـــدًا. كنّـــا طالبين معًا في نفس الجامعة. وأتردّد على بيت أختي باستمرار"

استعادت القشرة الدّماغية لأحمد نشاطها مع أوّل نفـــس مـــن السّيجارة.

"تعيش هنا إذن؟"

أطلق سهمًا من الدّخان في الهواء.

"نعم تقريبا، أقضي معظم وقتي برفقتهما. أنا أعزب"

"آه لست متزوّجا، وما هو عملك؟" سأل أحمد.

"كنت مسؤولا عن فرع في مديريّة المالية. ترقّيت منذ حوالي أسبوع فقط إلى مدير عامّ".

"مبروك عليك. إذن ما رأيك"

"رأيي؟.. في ماذا؟"

"من يرغب في قتله؟" ضحك خليل ضحكة عسيرة، وتراقص في الهواء خيط متعرّج من الدّخان.

"هذا سؤال صعب.. لا يوجد شخص محدّد. ولكن أعتقد أن طبيعة عمله كانت تفرض عليه التعامل مع المقاولين ورجال الأعمال بحزم، ما يجعله عرضة للمشاكل في أغلب الأحيان."

"وهل رأيت ما جعلك تعتقد بوجود ضغائن؟"

صمت برهة وفكّر فيما سيقوله لاحقا.

"إنّها في الحقيقة مجرّد تخمينات"

كان أحمد يؤمن بقاعدة سقراط المنهجية. حيث تقول القاعدة: «اتّبع البرهان إلى حيث يقودك». هكذا قرأها في إحدى كتب الفلسفة حين كان طالبا في جامعة الحقوق، جملة بسيطة ساعدته في كثير من المرات خلال بحثه عن حقيقة الأشياء.

"هل لديك فكرة عن مكان تواجده قبل حدوث الجريمة؟"

هزّ رأسه نفيا وقال:

"بدأ يتغيب في الآونة الأخيرة عن المنزل بشكل ملحوظ، هـــذا كلّ ما لاحظته"

"ألم يكن يعاني من مشكل ما؟ زوجته مثلا، ألم تلاحظ شـــيئا مريبا بشأنه؟"

تحرّكت ركبتا خليل بتوتّر، وأشاح ببصره نحو النّافذة ثمّ أجاب.

"أخبرتني منذ عدّة أيّام، أنّهـــا وجـــدت في خزانتـــه حبـــوب «الترامادول»، وهي مهدّئات قويّة كما تعلم"

"حبوب الترامادول؟ لابدّ أنّه انهيار عصبيّ."

"لا أدري... ربما. ولكن ما حيّرني فعلا، هو أنّه بـــدا طبيعيّـــا جدًّا".

بدا خليل واثقا من كلامه.

"ولكن تناول المهدّئات وغيابه عن المنزل بشكل ملحـــوظ، لا يبدوان تصرّفا طبيعيّا"

"هذا ما اعتقدته أيضا"

فكّر أحمد في السّؤال التّالي، وتردّد قليلا ثمّ سمع نفسه يقول:

"كيف كانت علاقته مع زوجته؟"

شعر بالإحراج عندما شاهد اندهاش خليل، الّـــذي تحرّكـــت عضلة فكّيه القويّين، وشدّت البشرة البيضاء على وجهه.

"آسف على تدخلي في شؤون الأسرة، ولكنّها جريمة قتل وأنـــا أقوم بعملي فحسب".

هدّأ روعه قليلا وهو يستمع إلى الشّرطيّ يتكلّم.

"كانت علاقتهما ككل الأزواج ثابتة ومستقرّة" كانت نبرتـــه تشي بانزعاج واضح.

"أين كنت متواجدا بين السّاعة العاشرة والثّانية عشرة؟"

نظر خليل نحو أحمد بحدّة والتقت نظرتاهما.

"من الثامنة إلى العاشرة كنت متواجدا في عرس أحد الأصدقاء، يدعى حمزة بوقادير، يمكن أن تتأكّد بنفسك. غادرت من هناك حوالي السّاعة العاشرة. ثمّ ذهبت إلى بيتي و لم أبرحه إلاّ عند سماعي بخبر الوفاة"

"لقد شوهد قبل مقتله بلحظات قصيرة مع رجل غريب، هل لديك فكرة عمّن يكون هذا الشّخص؟".

تأفّف ضجرًا وقال:

"أظنّ أن إيجاد القاتل هي مهمّتك أنت، قلت لك كلّ ما أعرفه".

نهض أحمد من مكانه، شدّ قامته، وأحسّ بالألم عند نهاية العمود الفقريّ.

"أريد رقم هاتفك، لاتّصل بك عند الحاجة؟"

"نعم، لحظة فقط"

أخرج بطاقة عمل من حافظة النقود وسلّمها له.

"تفضّل عليها رقمي الخاصّ، رقم الهاتف في المكتب، والإيميل"

مدّ يده إلى الرّجل ثمّ تصافحا، وغادر المكان.

-8-

اعتدلت الشّمس في السّماء وتقلّصت الظّـلال علـى الأرض، حين كان أحمد يعبر الشّارع ماشيًا على قدميه، كان الهواء جافًّا. نفخ على قطرة العرق الّتي وقفت على أرنبة أنفه. بدا وكأن الشّمس على بعد أمتار فقط. من قال أنّ 149.6 مليون كيلومتر هي المسافة بـين الشّمس والأرض، ومن قال أنّ أشعّتها تستغرق ثّمانية دقائق لتقطـع تلك المسافة. فهو حتما لم يختبر هذا الحرّ.

أوقف سيّارة أجرة كانت تمرّ أمامه في تلك اللّحظة، اسـتقلّها وطلب من السائق التوجُّه إلى مبنى الشّرطة الرّئيسيّ.

في قاعة الإجتماعات جلس أحمد بجانب النّافذة وألقى ظهـره على مسند الكرسيّ، نظر «فتحي زمالة» المحقق الشّـابّ إلى مـدير القسم بن ذهيبة، وكان كلّ من الطّبيب الشّرعيّ حمزة بوبكر وضابط الشّرطة العلميّة صويلح مهري حاضرين هناك. تنحنح بن ذهيبة عن قصد ليلفت انتباه أحمد الّذي راح يحدّق إلى وافدة جديـدة كانـت تجلس في القاعة. انتظر حتّى يعمّ الهدوء ثمّ قال:

"ينتظرنا عمل طويل، لذلك أريد مـنكم التّركيـز في هـذه القضيّة" طوى بن ذهيبة ذراعيه أمام صدره، ونقل ثقله من قـدم إلى أخرى. كان يضع تحت شفته العليا – جريا على عادتـه – لفافـة محشوّة بالتبغ.

"سنبدأ بسبب الوفاة أوّلا" لمعت النظّارة الدائرية على وجه حمزة، تحرّك في مقعده ثمّ قال بنبرة تدل على حنكة طبيب مخضرم:

"الضّحيّة توفي حوالي السّاعة الحادية عشر والنّصف، و.." قاطعه فتحي فجأة، وقد ارتسم على وجهه تعبير غبيّ، كان أحمد يمقت ذلك الشّخص من أعماقه.

"نفس الوقت الّذي اتّصل فيه الشاهد، ليخبرنا بسماع طلق ناري"

هزّ حمزة رأسه موافقا

"أظهرت التّحاليل المخبرية، وجود كمية معتبرة من مهدّئ الأعصاب في دمه، لابدّ أن لها تأثيرا سلبيًّا على جسمه ولكنّها لم تتسبّب في وفاته. أصيب بطلق ناريّ أسفل كتفه اليمنى، أمّا الرّصاصة الثّانية فمزّقت عضلة البطين الأيمن ليتوقّف القلب عن ضخّ الدّماء، وينقطع الأكسجين عن باقي أعضاء الجسم"

"القاتل مجرّد هاوٍ، كان من الممكن أن يخطئه، لولا سوء الحظ"

التفتت الوجوه نحو الفتاة فجأة، وفي تلك الدّقيقة كان وجهها يحمرّ خجلا.

"أقدم لكم «كهينة منّاد»، خريجة جامعة الجزائر، مختصّة في جرائم الإنترنت وخبيرة في علم البصمات والتّحقيقات الجنائيّة"

كانت في الخامسة والعشرين، ذات بشرة كلون الخبز، لها عينان سوداوان، فوقهما حاجبان يرتسمان بعناية، كانت تجلس باستقامة على الكرسيّ الخشبي. فلاحظ أحمد انحناءة وركيها ورِبْلَتَيْ ساقيها المشدودتين برشاقة. كان شعرها الكستنائيّ معقوفا إلى الخلف بعناية، وافق الطّبيب الشّرعيّ على كلامها قائلا:

"هذا صحيح، فالمسافة الّتي قطعتها الرّصاصة لتبلغ الهدف كانت لا تتعدى الستة أمتار"

التفتت الوجوه مرّة أخرى إلى الطّبيب الشّرعيّ. ولكن أحمد بقي ينظر إلى الفتاة.

"إنّ حركة السّيّارة العنيفة هي الّتي تحكمت في مسار الرّصاص"

عمّ الهدوء في القاعة عندما تكلّم أحمد، وارتسم على وجه فتحي زمالة تعبير ساخر، وسأل بن ذهيبة بفراغ صبر:

"كيف تتحكم سيّارة في مسار الرّصاص؟"

تململ أحمد في جلسته، وأرخى ظهره الثّقيل على مسند الكرسيّ، وكأنّه يستمتع بتلك اللّحظة.

"لو رأينا آثار العجلات على الطّريق، لاستنتجنا أن توقف السّيّارة المسرعة كان مفاجئا وعنيفا، مما جعل تصويب المسدّس نحو الهدف أمرًا صعبًا"

"نقطة مهمّة ولكنّها لا تساعد حاليًّا على تحديد هوية القاتل"

تكلّم بن ذهيبة وردد بصره بين الحاضرين.

"لدينا مشتبه به رئيسي في هذه القضيّة، ولكنّه لا يزال مجهول الهوية، حسب الشهود كان مع الضّحيّة قبل وقوع الجريمة بلحظات قصيرة، لابدّ أن يكون له علاقة مباشرة بالجريمة"

التفت أحمد، فالتقت عيناه بعيني الفتاة لأول مرة، ثانيتين من التخاطر عبر العيون، كانت كافية لنحت صورتها داخل تلافيف دماغه.

"أنجع حل هو تتبع الرّقم التسلسلي للمسدّس ومعرفة مصدره أولا، ثمّ اقتفاء أثره فيما بعد"

تكلّم فتحي وهو يشابك بين ذراعيه فوق صدره ويستند علـــى ظهر الكرسيّ، وتراقصت عيناه في القاعة لتتبع مدى أهمّيّة حديثه.

"ستبين نتائج البحث بعد غد، عن مصدر المكالمات الأخيرة الّتي تلقاها الضّحيّة قبل وفاته، أمّا معرفة نوع الرّصاص فهو من اختصاص كهينة، وما تبقى من المهامّ فليتنافس المتنافسون، أريد مـــنكم نتـــائج إيجابية، وانسوا من الآن فصاعدا أيّـــام العطـــل ونهايـــة الأســـبوع، ستعوضون فيما بعد عند نهاية القضيّة".

صمت قليلا ومرر لسانه تحت شفته العليـــا، ليســـوي كومـــة الشمة. كان الحرّ شديدا في الخارج. انحدرت قطرة عرق على جبينه الناصع. ثمّ استطرد قائلا:

"آه. كدت أنسى، أين وصلنا في قضيّة الاختطاف. فتحي؟"

ردّد أحمد بصره بينهما لمعرفة أوجه الشبه، أو الأخطاء الســـبعة إن صحّ القول. كان الغباء هو النّقطة المشتركة بدون شك.

"لا شيء جديد يذكر، بحثنا في ملفـــات المســـبوقين قضـــائيا والمشتبه بهم عن حالات اختطاف مماثلة، وقمنا بعدد من الزيـــارات لأماكن ارتبنا في أمرها، ولكننا إلى حدّ السّـــاعة لم نصـــل إلى أيّـــة نتيجة."

جبهة ضيقة ووجه مربع، حتّى أفكاره كانت مربعة الشـــكل، وانحرف جانب شفتيه تعبيرا عن استيائه الظاهري، واكتملت الصّورة في مخيلة أحمد، وبدأ يضحك.

ساد الصّمت فجأة في القاعة والتفتت الوجوه نحوه في استنكار، كان الشرر يتطاير من عيني بن ذهيبة الّذي فرغ صبره.

"ما المضحك في الأمر يا سي..."

لم يرد النطق باسمه تعبيرا عن استيائه.

"لا شيء مهمّ، آسف على الإزعاج"

أحسّ بعينين داخل وجه مربع ترسلان شعاعا حارقا.

"لا بأس، نريد معرفة هذا الشّيء غير المهم"

بلغه صوت بن ذهيبة المشوب بحنق. وبدت الفكرة سخيفة إلى حدّ بعيد، ماذا يقول؟ "ذكّرتني بروبوكوب مثلا" بدا الأمر سخيفًا وحرجًا في آن واحد، وتمنّى لو تنصرف عنه الأعين.

"سامحوني، إنه أمر تافه لا يستحقّ المعرفة".

"هذا مؤشر جيد على جدية العمل، قليلا من الانضباط يا أحمد".

عاد الصّمت مرة أخرى كما كان عند بداية الانضباط، وارتسم على الأرضيّة الجرانيتية، مربع من أشعّة الشّمس تسلّلت عبر زجاج النّافذة.

"صويلح هل تريد قول شيء ما بخصوص الاختطاف؟".

"لا" قالها بإيجاز. وفتح بن ذهيبة فمه ليتكلّم ولكن «صويلح مهري» قاطعه قائلا:

"هناك أمر مهم، الفتاة اختطفت باستعمال سيّارة مجهولة، وهي نفس الحالة الّتي شهدناها في جريمة القتل الأخيرة."

استولى الانتباه على الحضور، وأطبق الصّمت فجأة في القاعة، طنّت ذبابة كسولة في الجوّ، بينت مدى عمق الهدوء في المكان، وأهمّيّة الكلام الّذي يقال.

"نفهم من كلامك أن القاتل يحتمل أن يكون هو نفسه الّذي اختطف الفتاة"

"لا أقول هذا، وإنّما أردت الإشارة إلى أهمّيّة آثار العجلات في مسرحي الجريمة. حتّى وإن لم نتوصل إلى نوع السّيّارة فربما سنجد رابطا بين الحادثين وبذلك نكون قد ركزنا جهودنا على هدف واحد"

"أظنّها فكرة جيدة" عاد الصّمت مرة أخرى والتصقت الذبابة بزجاج النّافذة، حدّقت أزواج من الأعين إلى أحمد. كانت تترقب دعابة أخرى ولكنّه بدا رصينا أكثر من أي وقت مضى. لم يكن على علاقة حسنة بالكهل مهري صويلح، إلا أنه كان يحترم طريقة عمله، الّتي تعتمد على التحليل المنطقي والتجربة الشّخصيّة.

"اختطفت الفتاة منذ شهر تقريبا. لا نملك أدنى فكرة عن المختطفين، أو المكان الّذي تتواجد فيه، كما لسنا متيقّنين إن كانت لا تزال على قيد الحياة، ليس لدينا حلول أخرى للاختيار، لذلك أتفق مع فكرة صويلح حول آثار العجلات".

ألقى أحمد نظرة إلى مجموعة من الأوراق والملفات الإداريّة المكدّسة فوق المكتب بدون ترتيب. وبجانبها وضع على حافة سطح المكتب علم الجزائر في حجم صغير وماسكة أقلام، وعلى الجدار المقابل علق تقويم موبيليس لشهر جوان 2015. كانت رائحة التبغ المتعفّنة تملأ مكتب رئيس القسم، وتبعث في النفس نفورا وتقززا مريعا، كرائحة معدة فارغة عند الاستيقاظ من النّوم.

"هل تعلم لماذا استدعيتك الآن؟" تكلّم بن ذهيبة بعد فترة صمت تعمّد إطالتها. ثمّ تظاهر بترتيب الأوراق المتراكمة فوق سطح المكتب.

"لا" ردّ أحمد باختصار متجاهلا المعنى من استدعائه، وركّز

نظراته على وجه بن ذهيبة المربّع، ولاحظ الانحناءة الّتي تحت أنفه مباشرة.

"أريد تنبيهك عمّا حدث في قاعة الانضباط"

استدار حول المكتب وغاص في معقده المريح.

عاودته تلك الفكرة السّخيفة عندما ألقى نظرة على وجهه المربع، بدت شفته العليا أكثر انتفاخا من أي وقت مضى، وأوشك أن يضحك مرة أخرى لولا قوة عجيبة جعلته يمسك عن الضحك:

"لقد فهمت الأمر. أريد منك طلبا"

"أنت معاقب، ولا يحق لك طلب أي شيء"

مال أحمد بجسمه إلى الأمام، ووضع رأسه بين كفيه وانغرست أصابع يده في شعره البنّيّ الداكن. وكأنّه يحمي أفكاره المتسارعة من الظّهور.

"أحتاج إلى سيّارة الدورية في العمل"

نظر بن ذهيبة إليه مليًّا ثمّ قال:

"سنتكلّم في الأمر لاحقا، والآن عليك التّركيز في الآتي، لأن الوقت يداهمنا".

كانت الحرارة لا تطاق في الخارج، وقف أحمد أمام مبنى الشّرطة يختار أيّ وجهة سيسلكها، أحس بمعدته تصدر صوتا مزعجا، كان الجوع ينهش أمعاءه في تلك اللّحظة. أشارت السّاعة إلى الثّانية والنّصف زوالا عندما قصد مطعما يقع على بعد شارعين، يعدّ وجبات سريعة وبسعر مناسب. التهم غذاءه الدسم ثمّ غادر المطعم وهو يحرّك عود الأسنان في فمه، كان للوجبة المليئة بالدهون، أثرٌ سيئ على معدته، فقد بدأ يعاني من الحموضة والإحساس بالاحتراق.

-9-

في التّاسعة والرّبع من اليوم التالي مضى نحو مركز الشّرطة مشيا على الأقدام. كان يوم الجمعة ثقيلا كالعادة، شوارع خالية وحركة سير بطيئة، الشّيء الوحيد الّذي ينبض بالحياة هو المساجد. استغرق نصف ساعة للوصول إلى مكتبه. كان يتصبّب عرقا عندما فتح باب مكتبه ووجد بدر الدّين هناك عاكفا على لعبة السّوليتير.

"السّلام عليكم. أنت هنا؟!" سأل أحمد باندهاش.

"أنت أيضا جئت؟"

اتَّجه أحمد نحو مقعده ليستريح قليلا، ويترك عرقه ليجفّ.

"بن ذهيبة نائم على القطن وبدر الدّين يحرس الجزائر، برافو"

"يوم الجمعة صباحا ومباريات المنتخب الوطنيّ، في هذه الأوقات تستطيع أن تسطو على أي مصرف في الجزائر، وتستطيع تهريب باخرة من الهيروين أو طائرة من حبوب الإكستازيا، بدون مشكل".

نظر بدر الدّين إلى ساعة معصمه ثمّ قال:

"أنت متأخّر نوعا ما عن الموعد فقد رأيت تلك المدلّلة الجديدة مع حمزة قبل نصف ساعة، يبدو أنّه يجري وراءها."

سرت موجة كهربائية في جسد أحمد عند سماعه للجملة الأخيرة. ضبط تعابير وجهه وكأنّه يداري أمرا لم يفهم معناه. فتعمد تغيير دفة الحديث.

"شاهدت البارحة فيلما لكانو ريف، مدته ساعتان لهذا لم أستيقظ باكرا"

"ذو الماتريكس؟"

"لا. سويت نوفمبر"

"أفضّل «بوينت بريك» إنّها أفضل أفلامه"

هزّ أحمد كتفيه وتظاهر بالإصغاء.

"هذا الممثّل ولد في بيروت"

عبثت أصابع أحمد بقلم كان فوق مكتبه، ثمّ سادت فترة صمت قصيرة قبل أن يتكلّم وكأنّه تذكر أمرا مهمًّا:

"هناك أمور عالقة يجب أن أنهيها"

نهض من مكانه بحركة متثاقلة وتحرّك نحو الباب.

"هل رأيت التّقرير الّذي وصل اليوم"

توقّف أحمد في مكانه فجأة واتّجه نحو زميله، تناول التّقرير من يدي بدرالدّين، وألقى عليه نظرة شاملة، كان يحتوي على لائحة من أرقام الهواتف، تحرّك في الغرفة ببطء دون أن يرفع بصره عن الورقة ثمّ وضعها على سطح مكتبه برفق، وانحنى فوقها باهتمام، تحرّكت سبابته على أرقام الهواتف بعناية، ثمّ توقف أصبعه عند رقم لفت انتباهه. لم يظهر أنّه يحتلّ الصّدارة على أرقام اللائحة، لكنّه بعد أن ظهر للمرّة الأولى لم يلبث أن تكرّر مرارًا. نظر نحو بدر الدّين في اهتمام.

"هل تستطيع أن تتأكّد من صاحب هذا الرّقم؟"

كان بدر الدّين يقف بجانبه وقد وافق بإيماءة من رأسه، استقرّ بصر أحمد على خانة معينة ثمّ تكلّم ببطء:

"أريدك أن تعرف مكان تواجد كلّ شخص في هـــذه القائمـــة وقت وقوع الجريمة".

"سأتكفّل بالأمر ولكن أمهلني بعض الوقت فأنا أعمل لوحدي هنا"

"حسنا يا سيّدي. أبطئ وجئنا بالكامل"

-10-

مضى نحو الطّابق الثّاني، بعد أن كلّف بدر الدّين بتلك المهمّة، عبر الرّواق القصير على يمينه، حتّى بلغ المكتب الأخير عند نهايته. كانت دفّة الباب نصف موصدة، دفعه برفق ودلف إلى الدّاخل. أحسّ بهدوء عميق وضوء خافت ينتشر بالدّاخل. جوّ ملائم لممارسة اليوغا. مكتب مرتّب وأنيق، وضع في الزّاوية اليمنى أصيص نبتة العنكبوت. وعلى الجانب الآخر طاولة معدنيّة ذات أدراج وسطح أملس. كانت شاشة الكمبيوتر تتوسّط الغرفة، برز من وراء حافتها شعر كستنائيّ. ولمّا أصبح داخل الغرفة تحرّك الرّأس نحوه ببطء، وبرزت من خلاله عينان عسليّتان فوقهما حاجبان يرتسمان بعناية. نظرت إليه من فوق الشّاشة ولم يبدُ عليها الاندهاش. أحسّ بارتباك عند التقاء نظراتهما للمرّة الثّانية. حاول جاهدًا ألا يبدو بمظهر المغفّل أمامها.

"صباح الخير، آسف على التّأخير"

"لا بأس، كنت انتظر قدومك" لم تعد قدماه قادرتين على حمله.

"هل من جديد في القضيّة؟"

أومأت له بالجلوس على مقعد كان بجانبها. التقطت خياشيمه رائحة عطرها العجيب. كان مظهرها يوحي بالثقة والهدوء.

"توصّلت إلى معرفة نوع المسدّس الّذي استعمله القاتل في الجريمة"

رنّ صوتها بإيقاع جميل، وظهر من لهجتها أنّها من نواحي العاصمة.

ومضت عيناه وهو يحدّق إلى شاشة الكمبيوتر، ظهرت أمامه خلفيّة سوداء وجدول يحتوي على مجموعة من الأرقام التسلسلية. كانت المسافة بينهما جدّ متقاربة وكان يفصل بينهما خيط شعاع، اخترق زجاج النّافذة.

انسدل شعرها الطّويل على كتفيها وبرز من خلاله رقبتها النّحيفة. بحركة رشيقة من أصابعها النّاعمة كبست على لوحة المفاتيح وشغّلت محرّك البحث. لاحظ أنّها لا تضع أيّ خاتم في أصبعها وهي تضغط على زرّ الفأرة، انتظر ظهور النّتيجة في صمت مطبق، تخلّل تلك الثواني المقبلة قلق وعاد يستنشق رائحة عطرها. تذكّر أنّه قرأ في إحدى المرّات مقالة عن العطور يقول كاتبها أنّ ثلاثة آلاف خليّة عصبيّة تنفتح في مخّ الرّجل حين يشمّ عطر سيّدة.

التفتت نحوه بعد أن ضغطت على زرّ آخر. التقت عيناهما فجأة. كان البياض الّذي يلفّ حدقة العين ناصعا جدًّا.

"ستظهر النّتيجة بعد دقيقة فقط"

ثبّتت خصلات شعرها فوق أذنها اليسرى. واكتفى بإيماءة من رأسه ثمّ غاص في الكرسيّ وحدّق في الشّاشة الّتي تنظر إليها نفس هاتين العينين العسليّتين. تمنّى أحمد لو يتوقّف به الزّمن في تلك اللّحظة.

أصبح لون الشّاشة أزرق كلون البحر. وكمن يعرف عمله جيّدا، أشارت نحو جدول جديد ظهر على شاشة الكمبيوتر، انحنت

قليلا، ثمّ قامت بالتقاط كيس شفّاف من داخل درج المكتب، رفعته نحو أحمد بأصبعين نحيفتين، فلمعت من خلاله رصاصتان متماثلتان.

"تسع مليمتر" تكلّم أحمد.

لم تستطع منع ابتسامة مرّت سريعا على شفتيها.

"المسدّس المستعمل نصف أوتوماتيكيّ، إيطالي الصّنع. مُوديل قديم الصّنع".

"نعم هذا واضح، المسدّس مسروق أو مهرّب عبر الحدود"

ثبتت عيناها على الجهاز وأدارت عجلة الفأرة.

"أنت محقّ فعلا. المسدّس من طراز بيريطا ألف وتسعمائة واثنين وتسعين 9 ميليمتر. سعة مذخرته خمسة عشر طلقة"

"وواحدة احتياطيّة." تزحزح في مكانه قليلا وزجّ يده في منطقة الخصر.

"هذا هو المسدّس، إنّه مشابه له تماما. ثمّ فكّك زناده وأظهر رأس الرّصاصة."

رفع رأسه وتمعّن في شكلها وهي تنظر إلى الرّصاصة باهتمام صبيّ، يكتشف شيئا جديدا. كانت تضع حول جيدها قلادة ذهبيّة رقيقة تنتهي بوردة لازورديّة وتحتوي على فصوص لّماعة دقيقة.

"هل سبق لك أن أطلقت الرّصاص بهذا المسدّس؟"

"لا لم أستعمله مطلقا، ما عدا في التّدريبات"

"لطالما استغربت هذا الأمر، إن كنتم لا تستعملونه أبدا فلماذا تكلّفون أنفسكم عناء حمله."

"قطعة من الزّيّ الرّسميّ لا أكثر، إنّه كربطة العنق مثلا أو كالجورب. نحن أصلا كدمى الماريونيت، تحرّكنا يد عليا، تجعلنا هادئين،

عنيفين، نضطهد الحرّيّات، ونقمع المظـــاهرات، نزكّـــي الانتخابـــات، ونبجّل الشعارات، نحن اليد الّتي تبطش بها والرّجل الّتي تمشي عليها."

صمت كلاهما ثمّ أطرق برأسه إلى الأرض، كانت معرفة نـــوع الرّصاصة غير مجدية للتقدم في القضيّة. وضع رأسه بين يديه، ثمّ سمعها تقول:

"هل هناك خطب ما؟" رفع رأسه ببطء ونظر إليهـــا. اخـــتلج جفناها فحولتهما إلى الشّاشة المضيئة.

"لا شيء. هل تستطيعين الحصـــول علـــى معلومـــات عـــن المسدّسات الضائعة؟".

"نعم بكل تأكيد، لن يستغرق البحث أكثر من دقيقتين"

كبست على لوحة المفاتيح بسرعة ودقّة متناهية وماهي إلا ثوان حتّى ظهرت النّتيجة.

"هذه قائمة المسدّسات المسجلة والّتي أبلغ عن فقدانها، وهـــذه قائمة أخرى لبعض الأسلحة الّتي أبلغ عن ضـــياعها مـــن مختلـــف القطاعات الأمنيّة، كلّها مرفقة بتقارير تبيّن ظروف اختفائها"

"ولكن القائمة طويلة جدًّا"

"هذا طبيعيّ لأننا نعمل ببرنامج وطنيّ موحّد، وهـــذه القائمـــة تشتمل على كلّ الحالات في الجزائر". كبست أصابعها النّحيفة بخفّة على أزرار الكيبورد ثمّ أضافت:

"أستطيع تضييق مجال البحث، لحظة فقط" استغلّ أحمد انهماكها في العمل، واختلس نظرة سريعة إلى جسدها، انحناءات رشيقة وبشرة ناعمة، وكأنّ الملابس الّتي ترتديها، لم تصنع إلا من أجلها، لا دهون زائدة ولا ضمور في شكلها.

"ها هي. انظر... هنا"

أشارت بأصابع ذات أظافر مطليّة باللّون الأحمر إلى مجموعة من الأسماء. كان من بين تلك التّقارير ما لفت انتباهه، انحنى أمام الشّاشة الزرقاء، ثمّ ضيّق عينيه وقال:

"افتحي هذا الملفّ" كبست على زرّ الكيبورد ومَرّت أجزاء من الثّانية قبل أن تظهر النّتيجة المدهشة أمام عينيه:

قضيّة بوبكر جيلالي

وأخذ يقرأ ما يراه على الشّاشة بصوت مرتفع:

"5 أفريل 2009... حيّ «بابا علي».. السّاعة السابعة صباحا... تمّ العثور على جثّة المدعوّ بوبكر جيلالي ميتا إثر رصاصتين في البطن"

"الطلقة المستعملة من عيار تسعة ميليمتر، مسدّس نصف أوتوماتيكيّ".

كان يتحدث كما لو أنه يريد أن يسمع شخصا بعيدا.

"لم تعثر الشّرطة على سلاح الجريمة". أضافت كهينة.

"من المحتمل أن تكون نفس الأداة الّتي استعملها القاتل للقضاء على ضحيّته".

ألقى ظهره العريض على مسند الكرسيّ، ثمّ شابك بين ذراعيه وسمع كهينة تقول:

"قد تكون محقا، ولكن المدّة الزّمنية الفاصلة بين القضيّتين بعيدة جدًّا".

"لكن هذا لا ينفي فكرتي"

"هناك المئات من المسدّسات المفقودة عبر الوطن".

"سأخبرك بالقصّة إذن"

رمقته بنظرة حائرة كمن يرجو تفسيرًا مقنعا.

"قبل ست سنوات، عملت مع صويلح في قضيّة مقتل شاب في حي باب علي، أصيب برصاصتين في نفس المكان الّذي أصيب فيه يوسف، وضعنا المشتبهين بهم في تلك القضيّة تحت المراقبة، ولكننا لم نتوصل إلى شيء لحدّ السّاعة"

"هل يعقل أن يكون القاتل هو نفسه"

هزّ أحمد رأسه ببطء، وساد صمت قصير.

"آسف أرهقتك بالبحث" تكلّم أحمد وهو يحكّ فروة رأسه.

"لا بأس. أقوم بعملي فحسب." أجابته بلكنة عاصميّة أنيقة، وبنفس الحركة السّابقة، ثبتت خصلات شعرها فوق أذنيها فظهر قرطها الذّهبيّ لامعا.

وقف أحمد واستعدّ للمغادرة. كانت الورقة قد خرجت من الطّابعة في تلك اللّحظة.

"سنلتقي مرّة أخرى" أحسّ بهفوته، ولكنّه استدرك في آخر المطاف وقال:

"لأعلمك بتطوّر الأوضاع".

ندت عنها ابتسامة رقيقة ثمّ التقطت الورقة من الطّابعة

"مرحبا بك في أي وقت يا سي...."

"اسمي أحمد ولد جيلالي، آسف لأنّني لم أقدّم نفسي منذ البداية"

"لا بأس أنا اسمي كهينة"

دوّنت رقما على قطعة صغيرة من الورق، ثمّ أرفقتها بالورقة المطبوعة وسلمتها إليه.

"هذا رقمي إن احتجت إلى أيّة مساعدة."

"أيّة مساعدة؟!" وبدل إجابته على سؤاله انشقّت شفتاها عـــن ابتسامة عذبة.

غادر أحمد المبنى إلى الشّارع. بهر النّور السّاطع عينيه في الخارج. احتاج لدقيقتين لكي يتعوّد على الكمية الهائلة من الحزم الضــوئية. كانت الشوارع خالية من الحركة تقريبا. قصد مطعمه المعتاد، وتناول سندوتشا برقائق البطاطا واللّحم المفروم. توجه إلى المسجد ثمّ أصغَى إلى الخطبة الّتي ألقاها الإمام في اهتمام. فاضت عيناه بالدّموع وكـــاد يبكي لشدّة تأثره بالخطبة وما وقع بين بلال بن ربـــاح وأبــــي ذرّ الغفاريّ بعد غضب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على هذا الأخــير. عند انتهاء صلاة الجمعة، مضى نحو منزله و لم يغـــادره إلا في اليـــوم التالي.

-11-

أحسّ بانقباض في صدره ومشى بخطوات متعبة. مطأطأ الـــرّأس كاسف البال، غارقا في بحر من الأفكار. وزاد من تفاقم الوضع آلام ظهره والتّجاعيد الّتي برزت على زوايا عينيه.

لا يزال مرتبكًا حيال مستقبله الغامض، لا يعرف أي منحـــى سيتّخذه. أعاد تقييم وضعه من جديد ووضع الحقائق نصب عينيـــه. تراءى له شبح الوحدة يخيّم على ما بقي من حياته. لم يكن شـــرطيّا بالمعنى الدّقيق. كان بكلّ بساطة شخصا منبـــوذا في مجتمـــع يحتقـــر الشّرطة.

تابع سيره في الطّريق المتعرّج بخطوات حذرة، كانت تقوم على جانبيه بيوت متداعية ويسطع في ذلك الجوّ هواء فاسد تنضـــح فيـــه رائحة السّمك المتعفّن ومياه الصّرف الكريهة الّتي فاضت من المجاري.

كانت الأرضيّة قذرة ومتآكلة بحيث لا تسمح بالســـير عليهـــا باطمئنان. مضى أحمد إلى بيت قديم تتوسّطه فسقيّة واسعة تنبـــت في مركزها شجرة تين مهملة. امتدّت بعض أغصانها إلى الدّهليز المطـــلّ على الفسقيّة وتفرّعت أغصانها في كلّ جانب لتغطّي كلّ الحيّز الّذي اشتمل عليه الفناء. كان المبنى على شاكلة المنازل التّقليديّة تتقاســـم حجراته ثلاث عائلات ويشتركون في مرحاض واحد يقع في معـــزل بجانب شجرة التّين، لا يكون شاغرا إلا لِمامًا كما أنّهم يشـــتركون

في مدخل واحد للبناية يظلّ بابه الخشبيّ الثّقيل مفتوحًا طوال النّهار، ويغلق فيما بعد صلاة العشاء وقبل صلاة الصّبح عند خروج الحاجّ عبد الله مؤذّن المسجد، وتتغيّر تلك الفترات بتغيُّر طول اللّيل والنّهار.

أحدث ثقل الباب صريرًا مزعِجًا، بعد أن دفعه برفق «لماذا يعجزون عن طلي هذه الرّزز الصّدئة بالزّيت أو الدّهن؟!»، وجد نفسه بالدّاخل، ثمّ ارتقى سلّما انتهى به إلى الطّابق الثّاني والأخير. مشى على يساره في الرّواق، وبعد خمسة أمتار توقّف. طرق الباب برفق وأعاد الكرّة، بعد مرور الثواني لم يسفر ذلك عن أيّة نتيجة تذكر. مرّت ثلاث دقائق على وقوفه أمام الباب فأعاد الطّرق مرّة أخرى ولكن بقوّة هذه المرّة.

"يا حمار اقتلع الباب.. انتظر.. انتظر!"

سمع وقع خطوات حافية ترج الأرضية رجاّ وما هي إلاّ لحظات حتّى فتح الباب. رأى شخصا منتصبا أمامه ويده ما تزال على مقبض الباب. نطقت عيناه المحمرّتان وندبة شفته العليا بالغضب. كان جفناه متلاصقين عند ظهوره أمام الباب، ثمّ بدآ في الانفراج شيئا فشيئا بعد أن ألفَا النّور السّاطع في الخارج. كان في التّاسعة والعشرين في مثل طول أحمد تماما بجسم مكتنز يميل إلى الضخامة، وَشعر متجعّد وأنف صغير ينتهي بفتحتين منفرجتين وتظهر على أرنبته ندبة حديثة، كانت مخلّفات آخر شجار خاضه منذ أيّام. ظهر بجسمه المملوء وصدره العاري ولم يكن يرتدي إلاّ شورتا قصيرا أطلّ باطن جيبه الأيسر منه إلى الخارج.

"هذا أنت؟!"

فرك عينيه وحرّك أصبعه في زاوية عينه ليمسح القذى عنــــها. أفسح له الباب فأصبحا في الدّاخل، استلقى أحمد على أريكة قديمة في الفراغ المقابل لمدخل الشّقّة. كان المكان ضيّقا لا يتّسع لوضع قطـــع أخرى من الأثاث بحيث انتشرت الفوضى في كلّ شبر من المنـــزل، رأى جوربا ملقى على الأرض وفردته الثّانية تتدلّى مـــن الحـــذاء في أقصى البهو وكأنّها تريد أن تزحف لتلحق بصديقتها.

وضعت على طاولة أمامه مرمدة مليئة بأعقاب السّجائر ولمـــح بعضا منها كان مرميّا على الأرضيّة الّتي لم تمسح منذ عدّة أسابيع.

"يا أخي. لماذا لا تقلع عن تدخين هذه الحشيشة".

قطّب «سفيان» حاجبيه اعتراضا على قوله وقال مدافعا عـــن نفسه:

"أوه... لقد بدأ الواعظ التقي الطاهر أبو الخشوع والـــورع في إلقاء نصائحه؟"

تأفّف ثمّ غلبه التثاؤب ولكن روح السّخرية أبـــت أن تغـــادر حديثه فقال بجفاء ظاهريّ:

"أفسدت نومي وتريد الآن أن تفسد يومي بحديثك المشؤوم"

لم يجب أحمد عن هذا السّؤال وعوضا عن ذلك راح يبتسم.

"هل تعلم. هه؟.. أنت تبدو مخنّثا.. هه هذا الشُّورت الضّيّق... ألا تملك غيره؟"

"تأدّب يا بغل أنت في حضرة سيدك هنا لذلك اجلس وكفانـــا فنتازيا وثرثرة"

ذهب إلى الحمّام حيث غاب لدقائق ورجع ليجلس على الكرسيّ ووجهه يقطر بالماء إما نسي مسحه بالمنشفة أو أن جميعها متّسخة.

"لماذا لم تأت البارحة، كانت مباراة جيّدة."

"كنت مرهقا، كما أنّ ركبتي ما زالت تـؤلمني. لا أريـد أن أجازف".

"دافيد بيكام مثلا؟"

انشقّت شفتاه عن ابتسامة خافتة، ورغـب في تغـيير مجـرى الحديث.

"هل سمعت بالجريمة الّتي حدثت منذ يومين في الحيّ الإداريّ؟"

"نعم، ومن لا يسمع، أظنّها ضغائن لا أكثر"

"هذا ما أظنّه أيضا ولكن للأسف لا تزال هوية القاتل مجهولـة تماما وهذا ما جعلني أطلب مساعدتك"

"مساعدتي؟ كيف أساعدك؟"

قطّب سفيان حاجبيه وبدا قلقا:

"لا تخف فلن أورّطك في شيء. أريد منك بعـض المعلومـات فقط."

"لا. لا لست خائفا لا أحبّ أن أضع نفسي في موقف الواشي ولكن لا بأس قل ما تريد ربّما أستطيع مساعدتك"

هيّأ أحمد نفسه ليسرد الوضع بطريقة ملائمة.

"حدثت منذ مدّة جريمة قتل راح ضحيّتها المدعوّ بوبكر جيلالي هل تذكره؟"

اكتفى سفيان بهزّ رأسه إلى الأمام والوراء.

"كان فيما يبدو أنه في نزاع مع شخص آخر ولسـوء حظّـه امتلك ذلك الخصم مسدّسا يرجّح أنّه من قام بقتله".

صمت برهة ليترك المجال للتفكير ثمّ واصل:

"هناك صلة بين القضيّتين لأنّ المسدّس المستعمل في القضاء على «بوبكر جيلالي» مشابه تمامًا للمسدّس الّذي قتل به يوسف قدادرة".

"دقيقة واحدة" قطع الحديث بإشارة من يده. أبرقت عيناه بغموض غريب ثمّ نهض من مكانه متحمّسا ومدّ يده في جيب سرواله الملقى على مسند الكرسيّ. أخرج سيجارة ورقاقة لفّ تبغ بيضاء. نظر إليه أحمد باستغراب، كان يعرف الإجابة مسبقا ولكنّه رغم ذلك قال متسائلا:

"سفيان ماذا تفعل؟"

"تريد المساعدة أم لا؟ إذن يجب عليّ التّركيز لأتمكّن من التّذكّر. ولا أستطيع ذلك من دون هذه"

وأشار بيده إلى قطعة صغيرة من القنب كانت في باطن كفّه. أمسكها بأطراف أصابعه وقام بتسخينها عدّة مرّات متقطّعة بواسطة الولاّعة.

"مازلت أذكر ذلك اليوم جيّدا، وذلك عند مروري بمقربة من مكان الحادثة سمعت طلقات نارية. ظننت أننا في يوم المولد النّبويّ وكانت تلك الأصوات أشبه بمفرقعات الألعاب النارية. هرولت مباشرة نحو مصدر الصّوت ملبّيًا نداء الفضول. أصبت بالذّعر وأنا أرى حلقة من البشر تحيط بجسد طريح. اقتربت مدفوعا برغبة الاستطلاع و لم تكد عيناي تقعان عليه حتّى عرفته. كان ذلك الجسد لبوبكر نفسه".

صمت لحظة قصيرة أطرق خلالها برأسه إلى الأسفل وبعثر التبغ في باطن كفّه اليمنى ثمّ رشّ فوقه فتات قطعة القنب المسخّنة على الورق الأبيض الرّفيع، ثمّ لعق طرفيْه بلسانه كغراء طبيعيّ ولفّه بعناية

ورفق حتّى تكوّر وأصبح على شكل سيجار كوبيّ، ودون أن يرفع بصره عن اللفافة استطرد قائلا:

"سمعت أحدهم يقول أنّ بوبكر دخل مع الجماعة في صراع حادّ منذ أشهر وربّما كان سوء التفاهم ما فرّق شملهم."

"أخبرني عن هذه الجماعة؟"

امتلأ وجه سفيان بتعبير ينمّ عن خطورة ما سيقول فتعمّد الصّمت لمدّة ليضفي أهمّيّة على ما سيقول. كان يبدو أنّه يعطي درسا لتلميذ مقبل على امتحان مهمّ. ووسط كلّ الجدّيّة الّتي أبداها أحمد وهو يستمع للقصّة اشتعلت نقطة بارزة بنفسجيّة في نهاية السّيجار ثمّ خفتت فجأة وانطلق منها دخان كثيف يتراقص في الجوّ متلألئًا كسحابة تغشى المكان. نظر سفيان من خلال غيمة الدّخان إلى أحمد وقال:

"جماعة الهواري"

غاب أحمد عن الوجود عند سماع ذلك الاسم مجدّدًا قبل أن يستفيق من غيبوبته.

"توقف لحظة!، هل قلت لي هواري؟... أنت تقصد هواري ولد ماريا؟!"

تكاثف الدّخان في الهواء فتصاعد وكوّن غيمة قاتمة في السّقف.

"نعم" نفث الدّخان السّامّ من فمه وبدا وكأنّه يستمتع بتعذيب أحمد من خلال تقطير الإجابة قطرة قطرة. تابع بعينيه عمودا من الدّخان كان يتمايل في الهواء صاعدًا نحو السّقف.

"أطلق سراحه بعفو رئاسيّ منذ أشهر".

صمت كلاهما فترة وجيزة من الزّمن وقد خيّم على المكان سكون عميق شبيه بما يكتنف الوسيط من هدوء قبل إيحاء الطّبيب.

كان ثمّة ضوء خافت ينساب من نافذة مطلّة على الفسقيّة، بدا وكأن ظلمة المكان تتفق مع جوّها الضّبابيّ. انحنى أحمد برأسه للأمام واتّكأ بمرفقيه على ركبتيه وأوحت عيناه الثّابتتان وحاجباه المرتفعان بأهمّيّة ما سيقوله:

"هل سبق وأن رأيت أحد هؤلاء الأشخاص في سيّارة رونو سوداء اللّون من طراز R18، أقصد في هذا الحيّ أو ربما شخصًا آخر. تذكّرْ أرجوك"

"ما دخلها في الموضوع؟"

"يا صديقي؛ القاتل الّذي نبحث عنه فرّ في هذه السّيّارة"

"لست أذكر أني رأيت مثل هذه السّيّارة منذ زمن بعيد، هل أنت متأكّد أنّها رونو R18؟"

"متأكّد".

مدّ رجليه في استياء وغاص في الأريكة، أحسّ بأطرافه تستجيب لخيبة الأمل إذ اعترته رغبة ملحّة للتّدخين.

"أدر السّيجارة ولا تكن أنانيًّا!"

استرخى كلاهما في هدوء بديع يصغيان لتأمُّلاتهما الباطنيّة.

"سفيان."

نادى أحمد وبدا على وجهه آي التّردّد ولكنّه قال أخيرًا في هدوء مفعم بنشوة مخدّرة:

"سيّارتي عند الميكانيكيّ. أريدك أن تقرضني مبلغا من المال"

«تغيّرت حياته منذ ذلك اليوم، حين رفضه العالم وتخلّى عنــه الجميع. انساب كالحيّة الرّقطاء يتتبّع وهاد الضّياع ويتيه في مروج النّسيان.

سرت في شرايينه دمــاء محقونــة بالحقــد والألم والكــره، وتضمّخت أنفاسه المتسارعة برائحة الغدر. تذبذبت خطواته الثّقيلة تحت تأثير الكحول. ووسط فناء مهجور وجــد ضــالّته هنــاك. سكون سرمديّ ثمّ ظلام أبديّ. تقيّأ كلّ ما في جوفه وبصق مرارة فمه على الأرضيّة القذرة. رأى الرّجوع إلى الوراء أمرا مســتحيلا كما يُستحال إرجاع هذا القيء إلى معدته.

استسلم للحزن فدفن وجهه بين يديه وأجهش بالبكاء. هبّت ريح سموم، حملت معها ذرّات الغبار وشكّلت زوبعة حول جسده المنحني، كشولة عقرب وسط الصحراء.»

-12-

استردّ أحمد نظره من الجريدة بعدما أحسّ بوقوف الفتى أمـــام الطّاولة، كان مشمّرا عن ساعديه وأبدى استعدادا لتلبية طلب زبونه. ولكن رؤيته لتلك البقع الدّاكنة أثار في نفسه اشمئزازا. فكّر ثمّ قـــدّر، وأخيرًا قام بطلب شيء لا تستطيع هاتان اليدان القذرتان أن تقومـــا بإعداده أو لمسه مباشرة.

"قـــارورة بيبســـي صـــغيرة الحجـــم، ومـــادلين ملفـــوف بالبلاستيك".

وضع ثلاث أصابع من يده على جانب جبهته وضغط بقوّة. بدأ اليوم مستيقظا على إثر الصّداع النّصفيّ ولكنّه اكتفى بشرب قـــرص أسبرين دون أن ينقُص من الألم شيءٌ. بعد لحظات عاد الشّـــابّ ذو الأظافر المحشوّة.

رنّ الهاتف في جيبه وكان الاتّصال من بدر الدّين.

"السّلام عليكم، كيف الحال؟"...

"تأكّدت من القائمة إذن"...

"نعم صاحب ذلك الرّقم"...

"امرأة؟ متأكّد"....

"زهيّة برّاشد. هل تملك عنوانها؟"...

"حسنا لا بأس سأطلبه من كهينة. شكرًا لك".

أقفل الخطّ ثمّ انزلق المشروب المنعش في حلقه بسلاسة، وبعد ذلك عاد إلى الصّحيفة مجدّدًا وتابع قراءة عمود السّياسة الّذي توقّف عنده. تخطّى بضع صفحاتٍ ثمّ ركّز نظره على عمود آخر لمفكّر اقتصاديّ. رمى في فمه قطعة من المادلين وسكب على إثرها جرعتين كبيرتين من المشروب الغازيّ. ردّد بصره بين العناوين العريضة وكان أغلبها مجترًّا لا يخرج عن المألوف. كان العمود مجرّد زعيق منظوم في نثر لا يسترعي الانتباه ولا يحرّك عاطفة أو خاطرة ما إلاّ التّذمّر من ثقل ظلّ كاتبه. قلب الجريدة إلى صفحة أخرى. ضاقت عيناه في تلك اللّحظة وتقوّست كتفاه وهو ينحني فوق الجريدة. وضع أصبعا على خبر واضح في صفحة الاجتماعيّات.

"جماعة إرهابية تغتال مدير البناء والتعمير لولاية معسكر أمام مقرّ إقامته.".

لمّا انتهى من قراءة ذلك التّقرير طوى الجريدة وطوّح بها على المائدة. غير مكترث للماء الّذي لامس أطرافها.

"شيفون لا تحقيق ولا تمحيص. صحافة كاذبة وسياسة منافقة."

عبّ ما تبقى في الزّجاجة من عصير ثمّ حمل ما تبقّى من المادلين ولفّه بالجريدة وهو يداري تخوّفه من أن يراه أحد وهو يقوم بذلك.

كانت السّيّارة بعد استرجاعها من الميكانيكيّ تبدو في حالة مستقرّة وهو يعبر بها حيَّ «فوبور» مرورا بمسجد عثمان ابن عفان. انعطف إلى منحدر على يساره. وعلى بعد خمس مئة متر تراءى له المبنى الرّئيسيّ للشّرطة الولائيّة.

فحص هذا الصّباح نسبة الزّيت والمرشّح الجديد قبل أن يهدر المحرّك، لم يتعوّد بعدُ على الأزيز المزعج الّذي يصدره أثناء القيادة...

أثناء ذلك عبر بذهنه خاطرٌ لم يكد يخبو أثره حتّى الــتقط الهــاتف ورفعه نحو أذنه. مرّت عشر ثوان قبل أن يسمع صوتا ناعما من الجهة المقابلة

"ألو.. صباح الخير." كان صوتا أنثويّا مألوفا.

"صباح الخير كهينة. كيف الحال؟"

"بخير شكرًا لك. وأنت كيف أحوال العمل."

"عجلة التّحقيق تدور ببطء ودرجة الحرارة لا تطاق"

لم يكن هذا ما يصبو إليه من خلال مهاتفتها ولكنّه اكتفى بهذا القدر.

"تبدو قلقا"

ووقع المحذور...

شعر بالخجل وكأنّها بسؤالها عرّته كاملا وكشفت ما يدور في خلده.

"أعاني الصّداع النّصفيّ.. أنا وســط الازدحــام وأتوجّــه إلى العمل"

كان يبذل جهدًا لجعل الحديث سلسا عن طريق التّحــدّث في أمور ساذجة، لعلّ اتّصاله كان سبرا لمعرفة رأيها حوله فقط.

"ممم الصّداع النّصفيّ، هل تضع قبّعة على راســك باســكو السخانة اليوم"

"وي السّخانة لا تحتمل ولكن لا أحبّ القبّعات إنّها تضايقني"

"الأعشاب الطبية جيدة لابدّ أن تجرّبها ستكون..."

ارتبك صوتها في الجملة الأخيرة قبل أن تتحوّل للحديث مــع شخص آخر.

"أرجو المعذرة أحدهم أراد استعمال الفاكس"

آه لقد برح الخفاء؛ كان يمكنها فقط طلب العفو عن المقاطعة ولكنّها أظهرت السّبب لدحض كلّ احتمال يربطها مع أحد، لابدّ أنّها تخلي له الطّريق بهذه المناورة الرّائعة. نشط خياله سريعا وتمنّى لو ينكشف حجاب المظاهر فتتجلّى الأمور على حقيقتها.

"شكرًا لك كهينة لا أريد أن أطيل عليك ولكنّي أودّ منك طلبًا صغيرًا"

"نعم بالطّبع تفضّل أحمد."

"أريد عنوان أحدهم، تدعى برّاشد زهيّة".

"حسنا دقيقة..."

"المنطقة الثامنة عمارة د40 رقم 147".

دوّن الرّقم على مفكّرته" هل من طلب آخر؟"

"لا.. شكرًا لك كهينة فقط أريد...". وشى صوته بارتباك واضح.

"ماذا تريد؟"

"فقط... لا شيء مهمّ سنلتقي لاحقا وشكرًا على المساعدة"

أغلق الخطّ وشعر برغبة ليصفع نفسه وينتقم من انتكاستها الّتي جرّته الآن إلى ندم عميق. ركن السّيّارة تحت ظلّ الشّجرة الّتي على حافّة الرّصيف وكانت تبعد خمسين مترًا عن مقرّ الشّرطة. عند دخوله إلى المبنى وجد شخصًا يعرفه حقَّ المعرفة، جسم مكتنز وجبين يتصبّب عرقًا على مدار العام كان يدعى كمال. تبادلا تحية مقتضبة ثمّ سأله كما اعتاد أن يفعل عند نهاية كلّ شهر:

"هل تلقّيت راتبك؟" تطلّع إلى الجواب وتمنّى أن يكـــون نعـــم ولكنّه كان مخيّبًا للآمال بحيث تكلّم كمال بخبرته المعهودة في معرفـــة أجر كلّ عامل وحتّى المدير، كما كان على اتّصال بأحد عمّال مقرّ البريد حيث يتمّ تسديد الرّواتب.

"لا ليس بعد، هذا الشهر سيحصل تأخير على ما أظنّ. بسبب مشكل السّيولة. ربّما الأسبوع القادم سنستلم رواتبنا بإذن الله"

كان أحمد يهمّ بالمغادرة وفي تلك الأثناء وصلت سيّارة شـــرطة توقّفت أمام المدخل بعنف. ترجّل منها شرطيّان ثمّ أعقبـــهم شـــابّ مقيّد بالأصفاد. تطاير الشّرّ من عينيه وقد تبعه على الأثر شـــرطيّان آخران كانا في تلك اللّحظة قد دارا حول السّيّارة ليتمكّنا من اللّحاق بالآخرين وقد لاقوا صعوبة في دفعه إلى الدّاخل. بدا كثور هـــائج في حلبة الماتادور يتربّص به الرّجال بأرديتهم القوطيّة وأوشحتهم الحمراء الّتي تثير غضب الثّور فيزداد حنقًا على الرّغم من إصـــابته. يـــرتطم بأجسام الشّرطيّين ليتحرّر من قبضاهم الخشنة.

"انتظر لحظة ريثما نتولّى أمره!" التفت أحمد إلى كمال الّـــذي قال ذلك بحماس ثمّ طار من مكانه على الرّغم من بدانتـــه المفرطـــة ارتجّت وتهدّلت طيّات كرشه الضّخمة وهو يركض مســـرعًا نحـــو الجوقة لمساعدتهم على إدخال الثّور، وكانت كرشه تتحـــرّك يمينـــا وشمالا، أعلى وأسفل.

كان المكان يضجّ بالفوضى، وضرباتُ الأقدام العنيفـــة علـــى الأرضيّة الغرانيتية تهزّ المكان، وما هي إلاّ لحظات قليلة حتّى وقفـــت عند المدخل امرأة تتلفّع بجلباب أسود وتغطّي رأسها بخمـــار أبـــيض يظهر سنّها من خلال ملامحها أنّها في نهاية العقد الخامس. كان يقف

إلى جانبها شابّ لا يتعدّى العشرين شديد الشَّبَه بها، أمّا الآخر فكان سنّه يربو على السّتّين. وزيادة على تشابه الملامح كان التّجهّم هو القاسم المشترك بينهم. وما إن اختفى الشّابّ عن أنظارهم وهو يغادرهم حتّى دخلت العائلة في نقاش حادّ مع شرطيّ آخر.

لم يعد كمال كما كان قبل تدخّله. بدا وكأنّه غطس في بركة من العرَق، كان يلهث بشدّة وهو يمسح العرق براحة يده ثمّ يرشّه على الأرض بكيفية تحرّك التّقزّز، حركة عنيفة.

"بالله عليك فهّمني ما خطب هؤلاء؟!" سأله أحمد وهو ينظر إلى قطرات العرق على الأرضيّة. لقد كان الرّجل آية في السّمنة بحيث لم يبق ثقب آخر في الحزام ليتلاءم مع قطر بطنه المتدلّية.

"كان فارًّا منذ أيّام. ولكن أفرادنا تعقبوا أثره حتّى وقع بين أيديهم".

"ما سبب الاعتقال وماذا فعل ليفرّ"

"متّهم بالاختطاف والابتزاز"

"اختطاف ماذا؟"

هزّ كتفيه قائلا: "فتاة"

-13-

أشارت ساعة الحائط إلى الخامسة إلا الرّبع ومال عمود الشّمس المتسلّل عبر النّافذة ميلة استقرّ موضعه على بقعة من الأرضيّة بجانـــب الصّوان وما هي إلاّ لحظات حتّى تعالت أصوات المآذن معلنة دخول وقت العصر. نهض من مكانه بتثاقل، وذهب إلى المغتسل.. اكتشف أنّ الماء لم يصل إلى شقّته منذ ثلاثة أيّام، ونسي أن يملأ القـــارورات الفارغة قبل انقطاعه، ولكنّه عثر تحت المَجْلَى في المطبخ على قارورة مليئة نسيها هناك منذ مدة فالتقطها وذهب بها نحو الحمّـــام فغســـل إبطيه بالماء ثمّ وجهه بالصابون ومسّد شعره بالمشط وغسل أســـنانه المتبقيّة وهو ينظر إلى وجهه من خلال المرآة، بصـــق في الحـــوض ثمّ مضمض. بعد لقاء معبودته كهينة – بدأ يقلق حيال مظهـــره العـــامّ ويوليه عناية خاصّة ولا يكاد يخرج من المنزل إلاّ والمرآة تشكو كثرة مرور شبحه على أديمها. عبر رواقا ضيّقا نحو حجرة النّـــوم وفـــتح خزانة الملابس ثمّ تناول تي شيرت أخضر اللّون من القطن الصّـــناعيّ بدون أزرار وذو أكمام قصيرة تشكل ياقته حرف V.

تطلّع إلى المرآة وهو يستظهر صورته في ملابسه الجديدة لآخـــر مرّة، أعاد ترتيب شعره وتثبيته بمرهم رخيص. فتح البرّاد وألفاه فارغا تقريبا لا يحتوي إلاّ على علبة خردل، علبة جبن بقي بداخلها قطعتان فقط وبجانبهما أقراص الكاشير الخمس وحبّـــات الليمـــون في درج

الخضروات بالأسفل وعلى الرّفوف قارورة الماء الأخيرة، صنع لنفسه سندويشا من الجبن والكاشير المتبقّيين ثمّ قام بلفّه في ورق السّيلوفان ليلتهمه في الخارج، أقفل باب الشّقّة وغادر المكان.

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة وخمس دقائق عندما شغّل محرّك السّيّارة ثمّ انطلق عبر الطّريق ببطء، وازدادت سرعته تدريجيّا مع دخوله في الطّريق الرّئيسيّ.

السّاعة الخامسة والرّبع، ولا يزال عالقا وسط الازدحام في منتصف الطّريق.

السّاعة الخامسة وثلاثين دقيقة، يقف عند إشارة المرور ينتظر الضّوء الأخضر.

السّاعة الخامسة وأربعون دقيقة، يدخل حيّ المنطقة الثامنة ويركن السّيّارة في جانب الطّريق.

نظر إلى العنوان المدوّن في الورقة وهو يقف أمام عمارة مكوّنة من أربعة طوابق، ارتقى السّلّم ببطء وقد بدأ يتعرّق من جديد. توقّف عند الطّابق الثالث ليلتقط أنفاسه، أحسّ بأنّ لياقته البدنية تفقد مرونتها ربّما بسبب توقّفه عن ممارسة الرّياضة لمدّة طويلة. مسح العرق المتصبّب على جبينه بباطن كفّه ثمّ جفّفه على طرف قميصه. انعطف على يمينه وطرق باب الشّقّة ثمّ جاء صوت المزلاج ينبّهه إلى انفتاح الباب. ظهر رجل مسنّ في عباءة بيضاء له شاربان مقصوصان بعناية. لم يكن هناك أرقام على جانب الباب. حدجه الرّجل بنظرة متسائلة:

"آسف على إزعاجك سيّدي. هل هذه شقّة برّاشد؟"

اضطرّ أحمد للسّؤال بعد أن علم أنّه طرق الباب الخطأ فأشار الرّجل إلى الباب المقابل. استدار أحمد وتقدّم نحو الشّقّة المقابلة ودون

تردّد مدّ يده ضاغطا على زرّ الجرس. مرّت عشرون ثانيـــة ثمّ أعـــاد الضّغط على الجرس مرّة أخرى. مرّت خمس ثوان أخرى. سمع صوتا رقيقا أنثويّا يخترق الباب لتصل إلى مسامعه كلمة. "نعععم"

فتح الباب عن فم أحمر وعينين خضراوتين وشعر متموّج أشقر. من خلال ما كانت ترتديه علم أحمد أنّها إمّا أتت من العمل للتوّ، أو أنّها تستعدّ للخروج، رفعت حاجبها المرسوم بدقّة و لم تدار ارتباكها حين نظرت إليه. كانت تبدو فاتنة بارتدائها للجينز الأزرق الفـــاتح وتي شيرت ذا لون ورديّ بدون ياقة مشبك بورود تبدأ ناحية الصّدر لتنتهي وسط منطقة البطن. كان جيدها النّاعم متّصلا بأعلى صـــدر ناهد بان شقّه من خلال ياقة الّتي شيرت الواسعة وقد تدلّى قرطـــان ذهبيّان على شكل فراشة من شحمة أذنها وتمنطقت بحزام رقيق حول بطنها ليبرز حدود منطقة الخصر ويرسم انحناءاته بدقّة.

"زهيّة برّاشد؟"

سأل أحمد بأدب وتجنّب النّظر إلى انحناءاتها.

"نعم. من أنت؟"

سألته بنبرة حاسمة تعوزها الرّقّة بعض الشّيء.

أظهر بطاقة الشّرطة على مرأى من ناظريها. أحسّ بانزعاجهـــا وهو يرى تلك النّظرة المتفحّصة الّتي رمقته بها.

"أنا المكلّف بالتّحقيق في قضيّة يوسف قدادرة أودّ التكلّم معك لو سمحت".

تنحّت جانبًا وأذنت له بالدّخول بحركة من يدها. داعبَ أنفُـــه رائحةَ عطرها الزّكيّ وهو يمرّ بجانبها في شبه لامبالاة. كانت تضـــع «الماسكارا» وتصبغ شفتيها بأحمر الشّفاه. سمع كثيرا بين أقرانـــه أن

هناك نساء بشعات يظهرن بشكل مغاير بعد وضع المساحيق ولكنّ الأمر هنا يختلف اختلافا تامّا؛ فصاحبة هذه العجيزة الطريّة تبدو وكأنّها خرجت من إحدى المجلاّت.

طلبت منه الجلوس على أريكة مريحة في قاعة الضّيوف، كان أثاث بيتها مرتّبا ومتناسقا ذات طابع أنثويّ ينم عن ذوق رفيع. فجأة قفز إلى ذهنه بدون سابق إنذار شكل بيته الكارثي وحاول جاهدا إغضاء الفكرة عن رأسه ولكن بدون جدوى فقد كان النظام والتناسق في تلك الصالة يدعوانه إلى التّفكير بغرفته. اختفت برهة من الزّمن ثمّ عادت تحمل بين يديها صينية عليها ابريق شاي وقدح ماء وضعت كلّ ذلك فوق المائدة.

"لماذا أتعبت نفسك سيّدتي، لن أطيل عليكم" أحسّ بحرج كبير نحو ما أبدته من كرم وكياسة تليق بالضّيوف أو لأنّه أيضا سيضطر لطرح أسئلة محرجة، لذلك بدا مرتبكا بعض الشّيء وهو يتناول قدح الشاي ليشرب آخر جرعة تأدّبا فقط.

رجعت زهيّة وقد طرأ عليها هالة من السّكينة والغموض لم يجد له تفسيرا لطالما كان خبيرا بسلوك الأشخاص وردود أفعالهم فآثر الصّمت والتّريُّث حتّى يكوّن رأيًا خاصًّا حولها

"أريد توجيه بعض الأسئلة بخصوص المرحوم يوسف"

لاحظ أن استياءًا تجلّى في ملامحها عند ذكر الكلمة الأخيرة، ولكنّها بدت هادئة من خلال استقامة ظهرها ونظراتها المتمعّنة.

"خذ راحتك واسأل كما تشاء"

"وجدنا رقمك على لائحة الأرقام الّتي اتّصلت بيوسف في نفس اليوم الّذي قتل فيه، وتصادف أن كان اتّصالك هو الأخير"

"هذا صحيح" أجابت باقتضاب، ثمّ كـوّرت قبضـة يـدها وبسطتها حتّى ابيضّت أطراف أصابعها.

"هل تشكّون في أنني من قتلته؟"

"لم أقصد ذلك سيّدتي، أريد التأكّد من كلّ النقاط هذا كلّ ما في الأمر"

هزّت رأسها موافقة.

"إذن ما سبب اتّصالك في هذا الوقت المتأخّر؟"

ساد صمت رهيب عقب إلقائه السّؤال الأخـير، وراح ينظـر إليها بعين متفحّصة، لمح شبح تقطيبة على وجهها ثمّ اختفت بسرعة وحلّ مكانها نظرة جافّة وهدوء خياليّ غير متوقّع من امرأة بهذا المظهر الرّقيق.

"المرحوم مديري في العمل وزوجي أيضا".

صعق لدى سماعه هذه الإجابة وراح يتخيل حياة يوسف الّـتي بدأ يلفها الغموض.

"زوجته؟" إذا لم يكن مخطئا فقد رأى زوجته منذ أيّـام. أمـا هذه...

"أنا زوجته الثّانية" ظهر عدم الارتياح على ملامحه فوضحت أكثر.

"زواج عرفي، الأخرى لم تكن لتقبل بذلك"

زواج عرفيّ! هذا يفسّر اتّصـالها في ذلـك الوقـت المتـأخّر واتّصالاتها المتكرّرة ولكن ما رأي زوجته الأولى وهل تعلـم بكـلّ ذلك.

طامنت من رأسها وهي تجفف دموعها في هدوء. مرت لحظات جنائزية قبل أن تسأل.

"هل توصّلتم إلى معرفة القاتل"

"لا نزال في طور التّحقيق ولكنّنا نبذل أقصى..."

مسحت وجهها بكفّيها ثمّ مسّدت شعرها وجذبته إلى الخلف في حركة أنيقة وراحت تطبق أصابعها وتبسطها من جديد في حركات عصبية

"لم أشأ أن أحضر الجنازة. أنت تعلم السّبب فهي لن تسمح بذلك. لا أستطيع تصديق أنه اغتيل هكذا ببساطة. إنها الكارثة بحد ذاتها. لله درك أين الرقابة في هذا البلد كيف يفر القاتل ببساطة من وسط المدينة وأمام العيان؟"

"إنّها أوّل جريمة بالسّلاح الناري منذ فترة الإرهاب، ليس الأمر بتلك البساطة الّتي تعتقدينها، لقد كان مراقبًا من قبل وقتله كان مدبَّرا ومدروسا بإتقان. ولذلك أريد أن أعرف إذا ما كان المدير يوسف على خلاف مع أحدهم في العمل، أو حتّى في حياته الشّخصيّة؟"

تردّدت فترة وكأنّها تفكر فيما ستقوله.

"أظنّ أنّك تتحدّث عن شخص يدعى بطّيّب مراد، خرج مؤخّرا من السّجن"

أخرجته بحديثها من قوقعته وطفق يسأل بتركيز شديد:

"ولكن ما علاقة هذا الأخير بيوسف؟"

سجن قبل ثلاث سنوات بتهمة التّزوير وتلقّي الرُّشَى. فقرّر يوسف التّخلّص منه بعد محاكمته وفصل نهائيًّا عن العمل"

استقرّت عيناها الخضراوان إلى ما وراء كتفيه وحدّقت في الفراغ وكأنّها تستدرّ من ذاكرتها أحداثا قد طواها الزّمن. لاحت في

عينيها نظرة جادّة. تجعدت جبهتها بشكل طفيف وتحرّكت شفتاها ببطء.

"كان غريب الأطوار في الآونة الأخيرة وبالتّحديد قبل أسبوع. بدا مرتبكا على نحو مثير للذعر"

توقّفت عن الكلام وبدا التردّد واضحا على نبراتها فشجّعها أحمد على الكلام:

"واصلي من فضلك!"

"ظروف منزله لم تجعل منه رجلا سعيدا. كانت تصرّفاته شاذّة عن المألوف وكان يرفض أي تدخّل في شؤونه".

صمت كلاهما دقيقة، مرّرت المنديل على خدّها لتمنع دمعة حارّة من الانجراف. غرزت أصابعها النّحيفة في شعرها الأشقر المتموّج وجذبته إلى الخلف بحركتها الاعتياديّة.

"مع مَن كان متورّطا بالضّبط؟"

"شركة بناء خاصّة «تشييد وعمران» كانت متعاقدة مع مؤسّستنا من أجل مجموعة من المشاريع الهامّة على مستوى الولاية".

كانت تراقبه بهدوء وحذر فطري لّما رأت ذلك الدّفتر الصّغير بين يديه وهو يخطّ عليه بعض العبارات، ودون أن يرفع بصره نحوها سألها مرّة أخرى:

"متى كانت آخر مرّة التقيتما فيها؟"

استقام ظهرها ووجّهت إليه نظرة قلقة. كان يجلس بهدوء، ينظر إلى القَسِمات المرسومة بعناية فائقة، يتطلّع إلى الإجابة من بين شفتيها المطليّتين بأحمر الشّفاه واللّتين لمح فيهما همًّا بالتّكلّم والتّردّد. أطرقت برأسها وعادت إلى الصّمت فترة وجيزة قبل أن تقول في الأخير:

"يوم الثّلاثاء، كنّا هنا معًا ثمّ غادر بعد ذلك في حوالي السّـــاعة التّاسعة مساءا كعادته كلّ يوم... لم أكن أعلم أنّهـــا آخرلحظـــات حياته". وضعت يدها على فمها وأنفها لتكتم شهقة جارفةً كـــادت تغلبها.

خرج من الزّيارة مرهق الأعصاب وقد ألفى الظّلام هابطًا منـــذ مدّة. شعر برغبة للتّنفيس عن صدره فقد بدأت القضيّةتنزلق بمخلّفاتها إلى حياته نوعًا مَا، اتَّجه إلى الجانب الآخر من الطّريق أيـــن ركـــن سيّارته قبل ساعة من الآن.

-14-

كان المنزل كئيبا والوحدة القاتلة تخنقه بمخالبها الحادّة. فتح الثلاّجة، شرب جرعة ماء ثمّ بحث عن شيء يأكله ولكن الثلاّجة كانت فارغة. أحسّ بالضّجر واتّجه رأسا إلى الكمبيوتر. تصفّح صفحته على الفايسبوك كالعادة، قرأ مقالة لإحدى الصّفحات العلميّة ثمّ فتح بريده الإلكترونيّ كجري عادته، رسائل روتينيّة، أغلبها لا يثير الانتباه. أحسّ بالتّعب وأراد الاستلقاء قليلا وقبل أن يطفئ الجهاز وقع نظره على رسالة من ضمن الرّسائل الواردة في البريد الإلكترونيّ. توقّفت يده فوق الفأرة فجاة وأعاد قراءة اسم المرسِل باهتمام، كان اسمًا غير مألوف ويوحي بالغرابة، فتح الرّسالة وكانت تحتوي على سطر واحد فقط

فَلا تَحسَبا هِنداً لَها الغَدرُ

سَجِيَّةَ نَفسٍ كلّ غانيَةٍ هِندُ

زاد هذا البيت الشّعريّ من غرابة الإيميل. أعاد تفقّد الاسم ولكن ذلك زاده تيهانًا. توتّرت أصابع يده وهو يحرّك الفأرة حول الاسم «Cadavre» تساءَل أحمد في نفسه عن الغرض من هذا البيت الّذي يتكلّم صراحة عن الغدر وعن علاقته به، كما قام بتفقد كلّ خلية من دماغه بحثا عن صاحب هذا الاسم. لم يتوصّل إلى شيء. أراد تجاهله ولكن رغبة التّحدي تجري في عروقه فنبضت أصابعه فوق الكيبورد ردًّا على الرّسالة.

"العاقل من افتتح في كلّ أمر خاتمته، وعلم من بدء كلّ شيء عاقبته"

كان رصيده في الشّعر لا بأس به، معتمدا على ذاكرته منذ أيّام الثانويّة، ولكنّه لم يفلح في تذكّر قائل هذا البيت. وأخيرًا ضغط على زرّ الإرسال وبعث الرّسالة.

-15-

امتزج الهواء بذرّات الغبار المتطاير. أحسّ بذوق التّراب وهو يلصق بأعلى حلقه، حرّك لسانه داخل فمه ثمّ بصق على الأرض. شقّ طريقه بصعوبة بين آلات البيلدوزار. بين أشعّة الظّهر السّاطعة والغبار الّذي تسبّبت فيه الآلات لمح أحمد غير بعيد عنه قبّعات صفراء واقية للصّدمات تبرق تحت توهّج لهيب الشّمس وتتحرّك بنشاط داخل الورشة.

على مرمى حجر منه رأى العربة المخصّصة للتّقنيّين والمسؤوليّن على إدارة المشروع، وعلى بعد ثلاثين مترًا تقع حفرة عميقة تنتظر وضع الأساسات الأولى للبناء.

اتَّجه نحو العربة بخطًى ثابتةٍ. نقر على الباب ثمّ مسح العرق المتجمّع على جبينه ومسح سطح شعره لكيلا يفسد تسريحته. كانت العربة على شكل مقطورة مستطيلة الشكل عرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر أمّا طولها فسبعة أمتار وكانت مزوّدة بمكيّفات.

انتبه أحمد إلى حركة الباب وهو يفتح عن وجه صارم لامرأة تضع نظّارة طبّيّة تمسك شعرها الأسود إلى الخلف على شكل ذيل حصان. نظرت إليه من خلال عينيها البنّيّتين.

"تفضّل، احذر أن تعثر بالدّرج" أصدرت الدّرجة الأولى صريرًا عندما وضع قدمه عليها. وجد نفسه بالدّاخل، وفجأة شعر بفارق الحرارة بين داخل العربة وخارجها كانت المكيّفات تبعث في المكان

برودة منعشة عملت على تلطيف الجوّ، إلاّ أّن ذلــك لم يمنــع مــن انبعاث رائحة العرق الجافّ ورائحة الأنفاس الكريهة الّــتي خلّفهــا العمّال وراءهم.

استطاع في لمحة واحدة اكتشاف المكان برمّته وعلى أقصى اليسار تقع حُجرة موصدة بباب مبطّن. خمّن أنّه مكتب صاحب الشّركة.

أبرز بطاقته ووجّهها نحوها.

"بشير فلاوي هنا؟"

"السّيّد بشير في مكتبه الآن وهو مشغول حاليًّا".

حدجته بنظرة ارتياب وأحسّت بعدم الارتياح وهو يخطو بأرض العربة أمامها مقلّبا نظره في كلّ ركن منها دون أن يلتفت إليها.

"سيّدتي الأمر لا يحتمل التّأخير، أبلغيه أنّ هناك شرطيّا في انتظاره"

"انتظر دقيقة سأعلمه بحضورك"

قعد أحمد على كرسيّ في غرفة مزدحمة بــالأوراق المكدّســة وشاشات الكمبيوتر، تحسّس ذقنه الّذي أصبح بحاجــة إلى حلاقــة عندما استدارت واتّجهت نحو الغرفة في أقصى العربة. اســتطاع أن يميّز من بين ثيابها الرّقيقة خيط حمالة صدرها وتوغّل ببصره بين ذلك مميّزا شامةً صغيرة الحجم على أديم بشرتها البيضاء، وانحدرت عينــاه نحو عجيزتها المدملجة والمشدودة بفعل سروال الجينز الضّيّق وعبّر عن إعجابه بتنهيدة عميقة أسفرت عن صوت شبيه كصفير الرّيــاح في فلاة مقفرة، استدار عنقها فجأة فضبطته مستغرقا في التّأمّل فتظــاهر بالنّظر إلى الحائط، ولكنّها تجاهلته غير مبدية انزعاجا بل راقها فعلــه لأنّ ذلك يدلّ على أنّ مظهرها لا يزال جذّابًا. غابت لمــدّة خمــس دقائق وعاد إليه ضميره يؤنّبه، فتذكّر خطبة الجمعة الماضية وكيــف

صرخ الإمام من فوق المحراب متوعّدا الخاطئين بنار جهنّم. أحسّ حينئذ أنّه يقصده من بين كلّ النّاس.

وكمن يحذف ملفًّا من الكمبيوتر بكبسة زرّ واحدة، أزاح أحمد عن رأسه كلّ شيء برمشة عين وهو يتطلّع إلى صاحبة الشّامة على الظّهر وقد أطلّت بوجهها الشّاحب من وراء الجدار الفاصل بين غرفة الإنتظار ومكتب الرّئيس، فبانت صفحة رقبتها اليسرى وتدلّت قلادتها الذّهبيّة مع شعرها المنداح.

"تفضل، إنّه في انتظارك".

راقبته بنظراتها المرتبكة وهو يخطر أرض العربة متّجها نحو الجانب الآخر وكانت الأخرى تهم بالمغادرة أثناء دخول أحمد. نقر على الباب مستأذنا، ثمّ دفعه برفق وجعل ينظر إلى شخص حسن الطلعة. قصير القامة، أسمر البشرة، توحي نظراته بالسؤدد والنفوذ. كان يجلس وراء مكتبه، يتحدث عبر الهاتف، أوما له للجلوس على الأريكة، ريثما ينهي المكالمة. على اليسار تدفّق شعاع من الضّوء من خلال النّافذة الثّانية في العربة والوحيدة في الغرفة. على الجانب الأيمن وعلى بعد متر ونصف المتر من المكتب وضعت ثلاجة صغيرة الحجم.

"السّلام عليكم".

مدّ أحمد يده مصافحًا ثمّ اهتزت يداهما وافترقتا دون أن يترك الرّجل الهاتف من يده الأخرى، استمرّ حديثه مع الهاتف وكأنّه نسي حضوره. أنهى المكالمة بجملة صارمة ثمّ خبط سمّاعة الهاتف بقوّة ونظر نحو أحمد بعينين تخلوان من التّعبير، كان رجلا في الخمسين، ذا جسم مكتنز وكرش عظيمة لم يمنعها القميص الفضفاض من الظّهور بشكل بارز، له شفتان شهوانيّتان وعينان بنّيّتان واسترسل شاربه العريض

وكأنّه جناحي طائر السّنونو. انفرج ثغره عن ابتسامة بغيضة.

"نعم. تفضّل، كيف أخدمك"

وأخذ يهتزّ داخل كرسيّه المتحرّك ذات اليمين وذات الشّمال، ممسكًا بالقلم بين يديه، ينتظر بنفاد صبر ظاهريّ خروج الزّائر عن الصّمت. تنهّد أحمد بعمق، أغلق قبضة يده وفتحها بحيث ابيضّت مفاصل أصابعه. اندفع يقول وكأنّه يلقي بقنبلة يدويّة:

"جئت بخصوص قضيّة مقتل قدادرة يوسف وأودّ طرح بعض الأسئلة إن كنت لا تمانع"

رأى أمارات القلق تظهر على ملامح الرّجل.

"لا بأس تفضّل"

شابك البشير بين يديه فوق كرشه الكبيرة وراح يركّز نظره في الشّخص القاعد قبالته

"هل تذكر مراد بطّيّب؟"

"مراد بطّيّب؟"

صمت برهة وأسند ذقنه على راحته ودوّر عينيه وكأنّه يحاول التّذكّر.

"لا.. لا أظنّ أنّي أعرفه؟"

"أمتأكّد من أنّك لا تعرفه. لأنّه إن صحّت معلوماتي فقد سجن منذ ثلاث سنوات بسبب تزوير تورّطت فيه مؤسّستك"

كان أحمد يرى أثر كلامه عندما امتقع وجه الرّجل واحتقن بالدّماء وكأنّه ثور هائج ثمّ راح يردّ الصّاع صاعين وقال:

"بالله عليك، كيف تريد منّي أن أذكر شخصا لم أره منذ ثلاث سنوات، لديّ هنا فقط -وأشار بيده إلى خارج النّافذة-مائتا عامل

وبعضهم يعمل لديّ منذ خمس سنوات أو أكثر، ولا أعرف أسماءهم، فكيف بـي أن أذكر هذا الشّخص؟!"

كان أحمد متيقّنا بأنّه يعرف بطّيّب مراد كما يعرف عدد أصابع قدميه، ولكنّه عمد إلى اللّفّ والدّوران بحجّة أهمّيّته الكبرى الّـتي لا تحتمل الالتفات إلى التّوافه من الأمور. كانت نـبرة صـوته قاسـية ومنطقيّة إلى أبعد الحدود.

"أعلم أنّك مشغول جدًّا، ولكنّنا أمام جريمة قتل ولابـدّ مـن الإجابة عن بعض الأسئلة".

"حسنا تفضّل، أنا أصغي". لمح طيف ابتسامة مستهزئة.

"يمكنك إخباري بكلّ ما تعرفه عن يوسف"

"رحمه الله، كان إنسانا مخلصًا في عمله. وطيّـب القلـب. لا يستحق تلك الميتة على كلّ حال."

لم يطرأ أيّ تغيير على تعابير وجهه وهو يعبّـر عـن شـعوره بالأسى نحو الميّت وكأنّه عملة ذات وجهين متشابهين.

"أتظنّ أنّه كان على خلاف مع أحدهم؟"

أطلق الرّجل ضحكة قصيرة وكأنّها ذيل ابتسامة.

"اللّي شافه، أنا من الخدمة للدار"

"كيف كانت علاقتكما"

فجأة رأى تحرّكا طفيفا على حاجبيه ولكنّه سرعان مـا خـبى ذلك التّعبير وحلّ مكانه خواء تامّ واستدرك أحمد ليوضّح أكثر.

"أعني هل كانت أمور العمل تجري على ما يرام"

"جيّدة الحمد لله، كلّ شيء يسير وفق المخطط والآجال المقرّرة"

كان واضحا أنّ أحمد بدأ يمقت الرّجل وعجرفته المقصودة.

"أنت تعلم أنّ أيّ معلومة منك ستقدّم الإضافة اللاّزمة، لــذلك أريد معرفة كلّ التفاصيل وحتّى المملة منها. قال ذلك عمدا وفــتح مفكّرته وتململ في الأريكة المريحة ووضع رجلاً فوق رجله الثّانية.

"أين كنت بالضّبط مساء يوم الثّلاثاء؟"

"كنت في وهران ورجعت إلى معسكرحوالي السّاعة الرّابعة أو الخامسة، لا أذكر بالضّبط متى ولكن بعدها ذهبت إلى المطعم لتناول وجبة الفطور المتأخّرة"

"من كان معك في المطعم؟"

سأل أحمد دون أن يرفع نظره عن المفكّرة.

"كنت مع محاسبــي الشّخصيّ، كنّا نناقش أمور العمل بالطّبع، ثمّ بعد ذلك اتَّجهت إلى بيتي حيث مكثت هنالك حوالي ســاعتين، وبعد صلاة المغرب توجّهت إلى مطعم للعشاء، وعند حوالي السّــاعة الحادية عشرة ليلا رجعت إلى البيت."

طوى أحمد مفكّرته ودسّها في جيبه، ورآه في تلــك اللّحظــة مستندا على ظهر الكرسيّ الفخم، وأخذ يتدحرج يمنة ويسرة. فتــل شاربيه ثمّ تثاءب وأمسك بالقلم من جديد بين يديه وهو ينظــر إلى أحمد بازدراء. حفّزته تلك النّظرة على الاسترسال في طرح الأسئلة.

"كيف تحصلت على هذا المشروع، أعني هل كان هناك ثلاثــة أظرفة فقط؟"

كان أحمد على علم بما تنتهجه بعض المؤسّسات الفاسدة عنــد التّعاقد مع أحد المقاولين. ولتغطية التّزوير بثوب النّزاهة يقوم المقاول باللّجوء إلى حيلة الثلاثة أظرفة، تعدّ بطريقة تجعله الأقلّ سعرًا من بين المشاركين. وهكذا يكون كلّ شيء قانونيًّا.

شعر بالتّفاعلات الكيميائية الّتي تحدث حاليًّا داخل ذلك الجسم المنتفخ، أخيرًا بلغ السّيل الزّبى. زوى الرّجل ما بين حاجبيه. وخلال لحظات انتشرت في المكان ضحكة طائشة ثمّ ما لبثت أن غاصت في أساريره. قفز على رجليه واقفا، معلنا بذلك نهاية المقابلة.

"بالمناقصة. ربحت الصّفقة عن طريق المناقصة يا سيّدي ولك أن تتأكّد إذا أردت. ونصيحتي إليك هي ألاّ تزعج نفسك بالبحث، فكلّ شيء قانونيّ."

هبّ أحمد واقفا من مكانه بعدما دسّ المفكّرة والقلم معًا في جيب سرواله. مدّ الرّجل يده أمامه للمصافحة، وبرزت لأوّل مرّة أسنانه العلويّة البيضاء وكانت مستوية ومرتّبة بعناية فائقة، كانت نقيض أسنانه السّفلية، الحقيقة أنّ هذا الرّجل كلّ جزء منه يحمل تناقضا صارخا.

"شكرًا على الزّيارة، أتمنى أنّك قمت بواجبك".

تجاهل أحمد الرّجل وأدار ظهره متّجها نحو باب الغرفة. شعر بالامتنان وهو ينهي ذلك اللّقاءالسّمج بهذه الطّريقة. توجّه نحو الخارج ولّما فتح الباب لفحته موجة من الهواء الحارّ على وجهه. هبّت ريح عاتية حملت معها حبّات الرّمل. دخل بعضها في عينيه فدمعتا على إثر ذلك. أخذ يدعك أهدابه حتّى احمرّت عيناه من شدّة الاحتكاك. لعن المكان ولعن الحرارة ولعن الرّيح ولعن اليوم، لعن المتسبّبين في قطع الماء عن شقّته، لعن سيّارته القديمة، لعن حياته كلّها. أراد في تلك اللّحظة أن يبتعد عن ذلك المكان بأقصى سرعة ممكنة فما عاد يحتمل المكوث لمدّة أطول.

-16-

وجد نفسه مرغما على تقبّل الوضع. استولى عليه اليأس وغلّفه القنوط. و لم يكن ليرضى بحياة أساسها الاضطراب والتّخفّي. آثر سكينة السّجن على قلق الحرّيّة، وهدوء البال على سجن الأفكار.

قرّر أن يسلّم نفسه هذه المرّة، مذعنًا لقدره المحتّم وتعبًا من هروبه المتّصل. قادته خطواته المختلجة نحو مركز الشّرطة. ارتقى الدّرج الأماميّ نحو المدخل الرّئيسيّ. لاحظ أن أفراد الشّرطة منهمكون في العمل. لم يتمكّن أحد من التّعرُّف عليه وهو يمرّ بجانبهم. قاوم تردّده للمرّة الأخيرة كانتحاريّ يودّ تفجير قنبلة تلفّ جسده. تقدّم نحو عامل الاستقبال، ولكن هذا الأخير لم يعره أيّ انتباه.

كان مستغرقًا في مكالمة هاتفيّة صاخبة. انتظر حتّى يفرغ الشّرطيّ من المكالمة. أقفل الخطّ ورمقه بنظرة فاترة جعلته يتردّد.

"نعم؟ رخصة القيادة؟"

"لا. أريد أن..." قاطعه الشّرطيّ فجأة:

"إذًا تريد التبليغ عن شيء ضائع؟"

"نعم في الحقيقة..." قاطعه مرّة أخرى مشيرًا بيده نحو باب مغلق:

"تقدّم نحو ذلك المكتب وانتظر ريثما يعود الموظّف"

وتحوّل الشّرطيّ إلى أغراضه متجاهلا الرّجل الواقف أمامه.

"أنا متّهم في جريمة قتل، أريد تسليم نفسي"

بهت الشّرطيّ وراء مكتبه.. التفت نحو مراد وقد انسحبت الدّماء من وجهه.

كان بن ذهيبة مغتبطا في جلسته واثقا من نفسه لأوّل مرّة بعد جريمة القتل وهو يضع ملفًّا على سطح المكتب. التقط وكيل الجمهوريّة الملفّ، واستغرق منه ستّة دقائق كاملة لتصفّحه. ساد صمت مقلق تشوبه خشخشة الأوراق، تنهيدات متقطّعة. بلّل معمّري إبهامه على نحو لا شعوريّ وقلّب ناظريه في الصّفحات بهدوء، وبعد لحظات وضعها جانبًا وظهر وجهه فارغًا من أيّ تعبير. نظراته الغائمة حرّكت الرّعب في قلب بن ذهيبة وجعلته يشكّك في اقتناعه بقوّة الأدلّة.

"قام بتسليم نفسه؟"

وجد نفسه مضطرّا لإثراء الأدلّة فتحرّكت شفتاه الغليظتان وقال بصوت واثق.

"انطبقت عليه مواصفات الشّخص الّذي شوهد أثناء وقوع الجريمة. كما أنّه يملك الدّافع لارتكاب جريمة قتل".

"ولكن هذا ليس كافيًا لإدانته. هل تملكون دليلا قاطعا ضدّه؟"

ارتبك بن ذهيبة وتردّد في الإجابة.

"هذا كلّ ما توصّلنا إليه حاليًّا".

"عليكم بتقديم الأدلّة الكافية في أجل قريب، لأنّ القضيّة لا تحتمل التّأخير فقد بدأت تأخذ أبعادا سياسيّة لا تحمد عواقبها أبدًا. سيحضر كلّ من الإذاعة الوطنيّة وممثّلي الجرائد الرّسميّة خلال الحكم، لدينا قضيّة بالغة في الأهمّيّة وعمل كبير في الانتظار".

-17-

أمسكت كهينة حافّة الفستان المعروض بواجهة المحلّ على عارضة أزياء بلاستيكيّة وتحسّست ملمس القماش. كان ناعما كأصابع يـــديها الرّقيقتين، بحثت عن ثمنه ولكنّها لم تجده مكتوبًا في أيّ موضع، كانت لا تزال تمسك بذيل الثّوب عندما التفتت نحو صاحب المحلّ.

"أخي، كم ثمن هذا؟"

لم تتلقَّ أي جواب. فقد كان منهمكًا مع إحدى الزّبونات.

"كم ثمن هذا الفستان سيّدي؟"

حانت من البائع التفاتة إلى صاحبة الصّوت. كانــــت تمســـك بطرف الفستان وتنتظر إجابته.

"أوو.. سامحيني أختي لم أرك.. ثمن هذا خمســـة آلاف دينــــار ولكن سأخصم لك من المبلغ إذا أردت شراءها".

"شكرًا لك.. سآخذها ولكن بقياس 38 سم"

خرجت من متجر الملابس النّسائيّة وكانت تحيط بها هالة مـــن عطر «نينا ريتشي» اشترته للتّوّ. ارتدت جلبابًا فضفاضًا أخضر اللّون وأمسكت شعرها إلى الأعلى بماسكة الشّعر وافترقت خصلاته مشكّلة رأس نخلة باسقة.

كانت تتأبّط حقيبة مملوءة بملابس الأطفال وتحمـــل في يــــدها اليسرى كيسًا بلاستيكيًّا وضع في داخله الفستان وملابس داخليّـــة

بالدونتال وبعض اللّعب الّتي اقتنتها قبل مرورها على محلّ الملابس كهديّة لأبناء أختها. لطالما تشوّقت لرؤيتهم بعد مرور أكثر من خمسة أشهر على آخر زيارة لأختها وهيبة والّتي مثّلت لها البديل عن أمّها فقد كانت كلّ شيء بالنّسبة لها. ولكن أختها أصبحت بمنأى عن همومها بعد زواجها وانتقالها للعيش في العاصمة. لم تكن تضمر لها شيئا ولكنّها فقدت ذلك الشّعور بالصّلة الّتي كانت تربطهما.

بينما تنهال عليها هذه الأفكار متسارعة أحسّت باهتزاز هاتفها داخل حقيبها. انتدبت مكانا يخلو من المارّة ووضعت الأكياس برفق على الأرض. دسّت يدها في قعر الحقيبة لتلتقط الهاتف، أصيبت بتيبّس في عضلاتها وارتفع الدّم إلى وجهها وهي تحدّق في الرّسالة الّتي ظهرت على شاشة الهاتف، كان شعورًا عجيبًا وغير متوقّع ولكنّه أتى في وقته تمامًا.

كان أحمد قد بدأ يشغل حيّزا من دماغها وخاصّة بعد الرّسائل القصيرة الّتي تبادلاها في الأيّام الأخيرة. كلّ رسالة منه كانت جديرة بإرباكها. حبست أنفاسها وفتحت الرّسالة «**سلام عليكم كيف حالك كهينة؟ أرجو أن تكوني بخير تذكّرتك وأردت أن أسأل عنك لأنّي لم أرك منذ يومين**»

أشرق وجهها بابتسامة وأعادت قراءة الرّسالة خمس مرّات وكأنّها تبحث عن كلمة مخفيّةٍ أو معنًى جديدٍ ينبثق من تلك الرّسالة. تردّدت قليلا قبل أن تبدأ بكتابة الرّسالة المناسبة. بدأت أصابعها تتحرّك فوق أزرار الهاتف بنعومة وتوقّفت أثناء ذلك عدّة مرّات تمحو كلمة تستبدل مكانها أخرى وتضيف معنى جديدًا، أنهت تحرير الرّسالة وضغطت على زرّ الإرسال.

كانت تتصرّف كفتاة في الخامسة عشرة وقد شعرت بالخجل وهي تنسى نفسها واقفة هكذا في الطّريق، حملت الأكياس مرّة أخرى ثمّ مضت في سبيلها وهي تستذكر الرّسالة الأخيرة. كانت رسائلهما المتبادلة مفعمة بالودّ والبراءة، ولكنّها لم تخلُ من تلميح وإيحاءات بالإعجاب والرّغبة في التّقرّب أكثر.

انشغلت فجأة بشيء لفت انتباهها، كانت في طريقها إلى البيت عندما تذكّرت أنّها لم تقم بشراء المأكولات الأساسيّة وبعض الفواكه. فتّشت محفظة نقودها وخاب ظنّها عندما تذكّرت أنّها أنفقت كلّ نقودها لشراء الألبسة واللّعب، لم يتبقّ إلاّ القليل من النّقود والّتي لا تفي بالغرض. أنفقت بسخاء هذا اليوم لأنّ أختها اتّصلت هذا الصّباح، وأعلمتها بقدومها يوم الأحد فرأت أنّه من الضّروريّ تجهيز بعض الهدايا وإعداد الحلويّات لاستقبال العائلة كما يجب، ولطالما أعربت لها أختها عن حبّ زوجها للبقلاوة الّتي تعدّها ببراعة فائقة ورثتها عن أمّها. دفعت بكامل الفكّة لبائع الخضر فملأت كيسا من الخضر ثمّ اشترت رطلا من لحم العجل.

شعرت بالرّاحة وهي تفكّر في أنّ يوم غد هو يوم الجمعة. هكذا تستطيع تحمّل الكمّ الهائل من الانشغالات، بدءا بتنظيف المنزل وإعداد العشاء وترتيب الأغراض على الرّفوف.. وهلمّ جرًّا. أحسّت بالبهجة مرّة أخرى. استحوذت الرّسالة الأخيرة على كامل اهتمامها.

وصلت إلى البيت بعد تسوّقها فوجدت والدها منكبًّا على صحيفته كالعادة، متّخذًا وضعيّة غريبة على مقعد الخيزران الهزّاز، وكان قد خلع قميصه من شدّة الحرّ وهو يرتدي سروالا قصيرا.

"صباح الخير بابا خلاص ولّيت"

نظر إليها من فوق نظّارته وتفحّص تلك الأكياس بعينين متسائلتين.

"اشتريتُ بعض الملابس واللّعب للطّفلين، توحّشْنَاهُم" نزعت حذاءها عند الباب ووضعته في خزانة الأحذية بعدما وضعت الأكياس على الأرض وثبّتت المفاتيح على العُلاقة الملصقة على الحائط بجانب الباب ثمّ عادت تقول مخاطبة أباها برقّة وهي تلتقط أنفاسها المتقطّعة:

"لا أعلم كيف يبدو شكل «آية» الآن، قالت لي وهيبة أنها تشبه أمّي" حكّ صدره ثمّ أسفل ذقنه في سرور.

"مضت ستّة أشهر على ولادتها، لابدّ أن «رياض» لديه من ينافسه في أمّه، من المؤكد أنّ سلوكه سيتغيّر نحو الأسوإ بسبب الغيرة"

ابتسمت كهينة.

"قالت وهيبة أنّه بدأ يبلّل فراشه منذ ولادة أخته"

"ذكّرتِني بأختك عندما ولادتك، كانت لا تتوقّف عن البكاء وانحرف سلوكها نحو الأسوإ حتّى سمّيناها ماروكو"

استغرق كلاهما في الضّحك، ثمّ حملت الأكياس ومضت بها نحو المطبخ مرورا بدهليز قصير على يمين الدّاخل. قامت بوضع الأغراض على الطّاولة والبعض الآخر بجانب مَجْلَى الأواني. وبعد ذلك ذهبت نحو غرفتها لتبديل ملابسها وأخذ حمّام بارد، وكان عليها قبل ذلك أن تضع قِدر الماء ليغلي تحت إناء الكسكس لتعود إليه بعد الاستحمام فقد بقي ساعتان على أذان الجمعة.

-18-

أصدر المحرّك هديرا قويّا عندما ضغط على الدّوّاسة بقدمه اليسرى ليرتفع مؤشّر السّرعة إلى ستّين كيلومترا في السّاعة، انبعث الدّخان بكثافة وتصاعد ليحجب عنه الرّؤية الخلفيّة، بدا وكأنّه يحمل مشواة لحم داخل صندوق السّيّارة. ضرب المقود بقبضة يده مرّات متتالية، مطلقا شتمات متلاحقة.

صعد الطّريق المنحدر ببطء وجلبة كبيرة. كانت السّيّارات تمرّ بجانبه كالبرق بينما هو لا يزال يكابد المحرّك بالضغط على الدّوّاسة للصّعود نحو نقطة التّقاطع، أين ينحرف يمينا نحو المنطقة الإداريّة.

هذه المرّة فكر جدّيًّا في بيعها لأنّه لم يعد يحتمل نفقاتها الكثيرة.

لاحظ مساحة شاغرة في موقف السّيّارات فحشر سيّارته الصّغيرة هناك. نزع حزام الأمان الّذي ضايقه أثناء الطّريق وانحنى إلى الأسفل بجانبه الأيمن ومدّ يده نحو أسفل المقعد فالتقط هاتفه الّذي انزلق من جيبه أثناء السّياقة. ترجّل من السّيّارة وأحسّ بجسمه المرتعش بفعل اهتزاز المحرّك يستريح نوعًا ما من تلك التّشنّجات المستمرّة أثناء القيادة.

وجد نفسه أمام مدخل مديريّة السكن والتّجهيزات العموميّة. كانت الواجهة نموذجًا لكلّ مبنى إداريّ في الجزائر. ارتقى الدّرج بتأنٍّ

نحو الطّابق الثّاني وفي نهاية السّلّم دهليز يحيط بمجموعة من المكاتب كلّ منها يحمل ترقيما واسمًا للخدمة الّتي يقدّمها.

كان صوت الطّابعة المزعجة المنبعث من مكان ما، يمزّق هدوء الطّابق الثّاني الّذي كان أكثر هدوءا من الطّابق الأوّل والأرضيّ. كان يصدر صريرا مزعجا كوجع الرّأس، بحيث خيّل إليه أن كلّ حركة في المبنى تصدر من الطّابعة.

اهتدى إلى مكتب المدير وكان في الزّاوية الأكثر هدوءا حيث ثبتت على مقربة منها كاميرا على السّقف. كان باب السّكرتيرة نصفَ مفتوح مُزوّدا بعازل من الفلّين المكسوّ بالجلد. تساءل أحمد كيف يطرق هذا الباب، كما لا يوجد أيّ زرّ لجرسٍ مَا على الجدار! وقف لمدّة دقيقة أمام الباب منتظرًا بدون نتيجة. فاضطرّه أخيرًا إلى الدّخول. دفع الباب برفق وتقدّم ببطء. لاحظ أنّ الباب الفاصل بين السّكرتيرة ومكتب المدير مفتوح واستغرب خلوّ المكان بهذا الشّكل، وبما أنّه لم يجد السّكرتيرة أراد أن يخرج إلى قاعة الانتظار ريثما تعود إلى مكتبها، ولكنّه في تلك اللّحظة صرف تلك الفكرة عن رأسه فأصاخ السّمع عند سماعه لأوّل حركة. تناهى إلى سمعه صوت خافت من وراء جدار المكتب، اقترب من الصّوت أكثر واتّضح أنّها خشخشة أوراق واحتكاك لوح الدّرج داخل الخزانة. بدا أنّ هناك من يبحث عن شيء ضائع. تقدّم بخطوات سلسة نحو الدّاخل، وسَدّ فرجة الباب بجسمه الطّويل، غير أنّه لاحظ أنّ ذلك الشّخص لم ينتبه بعد لحضوره.

"السّلام عليكم. كنت أبحث عنك".

كانت زهيّة تبدو مشدوهة وقد ابيضّ وجهها وجفّت شرايينها من آخر قطرة دم. سقطت الأوراق من بين أصابعها من فرط التّوتّر،

ودون انتباه جثت على ركبتيها والتقطتها من الأرض. طوّحت شعرها المصفّف بعناية إلى الخلف في حركة تلقائيّة، ولم تستطع كتمان دهشتها رغم ما بذلته من جهد وهي تقف مرة أخرى على قدميها وتحمل الأوراق بين يديها لتضعها فوق المكتب، وقد استغلت فترة الصّمت تلك لتتمالك أعصابها.

"لقد أفزعتني بظهورك المفاجئ، كان لابدّ لك أن تستأذن قبل الدّخول".

لاحظ أحمد أثر الدّموع في مقلتيها وهي تتكلّم بانفعال مفرط.

"آسف لمداهمتك"

ورفع قبضة يده نحو كتفه ووجّه الإبهام خلفه مشيرًا نحو الباب الخارجيّ.

"طرقت الباب و لم أجد أحدا لذلك..."

قطعت كلامه فجأة:

"لا بأس تفضّل بالجلوس"

كان الأثاث في المكتب مرتّبا بعناية، كما أنّه اشتمل على نوافذ تطلّ على منظرين مختلفين. اكتست جدرانه بخشب ال «MDF» الّذي امتدّ من الأرض إلى الأعلى على ارتفاع مترين ثمّ يليه جدار بطلاء أبيض يلتقي مع السّقف من نفس اللّون. وضعت في كلّ زاوية منها أصُص لنباتات متوسّطة الحجم. كانت لا تزال تقف وسط الحجرة وقد غابت عنها نظرة القلق وارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة

"كما ترى أقوم بترتيب المكتب. الفوضى تعمّ المكان"

ابتسم أحمد بلطف وهو يرمق السّيّدة الحزينة.

"لم أستوعب بعد غيابه عنّا"

توقّفت لحظة لتمنع نفسها من البكاء.

"الحياة تستمرّ. كلّنا فقدنا أحبّاءَنا وهذه سُنّة الحياة"

"أعلم ذلك ولكن..."

انسحبت كلمتها الأخيرة من فمها وتراكمت الدّموع خلف جفنيها.

"هل تعرّفتم على القاتل؟"

"ليس بعد، لذلك أريد منك مساعدتي. أودّ إلقاء نظرة على الملفّات الّتي تمّ تزويرها سابقًا ولإجراء مقابلة مع زملائه من نفس المكتب لأنّ التّقارير ستعاد جملة وتفصيلا لتقديمها كأدلّة إلى قاعة المحكمة؛ فالقضيّة تأخذ أبعادا واسعة الآن".

كانت ترتدي ملابس ضيّقة تفضح جميع انحناءات جسمها المتناسقة وقد لامس شعرها المصفّف بعناية كتفيها وانسدل على ظهرها. تملّى النّظر إليها مليّا وقد أصبحت نظرتها ضبابيّة ومتفكّرة وهي تنظر من وراء كتفيه، بدت غامضة ومنزعجة. حدقت في وجهه بتمعّن ثمّ قالت بإيجاز:

"لا تقل لي أنّ مراد هو الّذي... يا أمّااه"

فتحت فمها دهِشَةً ثمّ تطلّعت إلى أحمد وكان وجهها كلّه عيونًا تحدّق إليه في تلك اللّحظة.

"في الوقت الرّاهن هو المتّهم الرّئيسيّ والوحيد في هذه القضيّة، وبما أنّنا تحت الضّغط، علينا تقديم حلول سريعة ومرضية في آن واحد"

ربّت أحمد على مسند الأريكة وراح يتحسّس ملمسها النّاعم وهو يسترق النّظرات إلى خصرها تارة وثدييها طورا وكأنّه يختبر

بتلمّسه لجلد الأريكة ملمس بشرتها النّاعمة، وواصل كلامه بينما راحت تبحث عن الملفّ الّذي أتى من أجله.

"إنّها السّياسة نحن نتّبع التّعليمات ليس إلاّ، قال لك «ائتنا بمجرم» عثرنا عليه، قال لك «ائتنا بضحيّة» أتينا بضحيّة. الانتخابات التّشريعيّة على الأبواب ومهمّتنا الرّئيسيّة الآن ليست تطبيق العدالة، وإنّما إرضاء الرّأي العامّ."

قال ذلك بشيء من السّخرية والتّذمّر.

" لم أكن أظن أن مراد يتجرأ عل القيام بعمل كهذا! إنّه شخص مسالم وانطوائيّ كما عرفناه هنا. لم يكن ليؤذيَ ذبابة"

"هاهو... لقد وجدته"

نفضت عنه طبقة الغبار الثخينة ثمّ تركته يسقط على الطّاولة أمام أحمد.

"شكرًا لك هل لك أن تدليني على مكان عمله السّابق؟"

مشى على أثرها يتبعها وكانت تميس بقدّها الرّشيق الّذي ارتسم شكله بدقّة من خلال الملابس الضّيّقة وشكل حرف 8 أو على شكل قيتارة، أمعن النّظر في المؤخّرة حتّى انتبه لها وهي تلتفت إليه وحدجته بنظرة ثاقبة وكأنّها تقول له "رأيتك تنظر" بأفصح لسان، ولكنّها مضت في طريقها غير عابئة بحرارة نظره على عجيزتها ثمّ توقّفا لحظة في الدّهليز المطلّ على الطّابق الأوّل واستندت على الدّرابزين لتشير بيدها النّاعمة المطليّة بالنّيفيا إلى مكتب في الأسفل ثمّ قالت موضّحة إشارتها.

"اسمه هشام مغراوي إنّه في ذلك المكتب"

هبط السّلالم درجة درجة ولكن بخفّة كبيرة، أصبح الآن في الطّابق الأوّل، اتَّجه إلى يساره، تخطّى مكتبين قبل أن يصل إلى باب موصد ثبتت على سطحه لافتة كتب عليها بأحرف عريضة مذهبة. "مكتب المحاسبة". نقر على الباب مستأذنا ولم يطل به الانتظار أكثر من خمس ثوان حتّى سمع دمدمة مبهمة تصدر من وراء الباب، دقّ مرّة أخرى فأتاه الصّوت هذه المرّة أكثر ارتفاعا ووضوحا.

"نعم.. نعم. أدخل. أدخل".

أدار المزلاج وأصدر صريرا مزعجا. كان لسان القفل عالقا في مكانه، وفي تلك اللّحظة انشقّ الباب عن فتحة ظهر من خلالها رجل طويل القامة أبيض البشرة نحيف العود يضع أصابعه النّحيفة على طرف نظّارته الطبّيّة - بدون إطارين - ويتفحّص الواقف أمامه دون أن يرفع يده الأخرى عن المزلاج.

"ادفع المزلاج جيّدا. هكذا... لأنّه مستعصي قليلا"

"السّلام عليكم. هل أنت السي هشام؟"

سأل أحمد وهو ينظر ناحية الرّجل بتعابير من يبحث عن أحدهم في لعبة الغميضة وقد تمّ ضبطه بعد الاختباء.

"نعم أنا هو هشام" أجابه بطريقة ساخرة هازًّا رأسه إلى الخلف والأمام ثمّ تبادل الرّجلان ابتسامة مرحة. قدّم أحمد نفسه للرّجل على أنّه شرطيّ ثمّ جلسا يتحدثان. ثبّت نظّارته فوق أنفه بحركة آلية من أصبعه وقد بدا لأحمد أنّ الرّجل يتمتّع بحسّ فكاهيّ على الرّغم من مظهره الصّارم.

إذا سمحت لي بشيء من وقتك، أريد أن أتطرّق إلى قضيّة لقدادرة يوسف، أخبرتني السّكرتيرة أنّك كنت زميله فيما مضى"

"مراد كان زميلي داخل المكتب وخارجه ولكـــن الأســـباب تقطّعت بيننا منذ أن سجن. كان دؤوبا في عمله مـــاهرًا في أمـــور المحاسبة ضليعًا بقوانين الصّفقات العموميّة. لقد تـــرك وراءه ثغـــرة عميقة لم يقدر أيّ أحد على سدّها رغم تدعيم فرعنا بموظّفين جدد. أمّا حياته الشّخصيّة فهو مسالم طيّب القلب، هادئ وانطوائيّ الطّبع وحقيقة الأمر أنّ كلّ من عرفه لم يستسغ بعد بأنّه القاتل. والله مـــا تعرف شيئًا في هذه الدنيا"

"ربما كان يخفي جانبا من شخصيّته لم يطّلع عليه أحد منكم"

"قد تصيب في تكهناتك ولكنّي لا أستطيع أن أتصـــوّر مـــراد قاتلا"

"حسنا هناك بعض النقاط المهمّة الّتي أود سؤالك عنها"

نهض هشام من مكانه واقفا عاد إلى مجلسه بعد أن أغلق البـــاب. ألقى قَذالَه على مسند الكرسيّ ومدّد ساقيه تحت الطّاولة، بدا مسترخيًا في وضعيّته الجديدة وهو ينظر نحو أحمد من وراء زجاج النظّارة.

"لابدّ أنّك تعلم السّبب وراء سجنه، لـــذلك أريـــد اختصـــار الحديث والذّهاب نحو الصّميم"

أمسك المفكّرة بين يديه وداعبت أصابعه القلم.

"هل كان يعاني من مشاكل ماليّة في تلك الفترة؟".

"كان رئيس مكتب المحاسبة وعملت تحت إشرافه كمســـاعد، حررنا مئات الفواتير خلال عدة سنوات، ونجحنا في تسيير الأشـــغال بطرق قانونيّة بحتة غير مستسلمين لإغراءات المقاولين ولم نكن نعاني من أي مشكل رغم الصعوبة الّتي نواجهها للتـــدقيق في الحســـابات وإعادة مراقبة الأرقام والمواد القانونيّة. صحيح أنّ المرتّب ضئيل وقد

لا يلبّي احتياجات موظّف عاديّ من أمثالنا ولكن مــراد شــخص مستقيم ومتديّن. لا يمكن أن يستسلم لإغراء المال. هــذه ليســت شهادتي وإنّما شهادة جميع من عرفه، وسيقولون لك نفس الشّيء".

"كيف تتم عملية تحرير الفاتورةو المصادقة عليها؟"

"نقوم عادة بمتابعة المشاريع ماليًّا، فنحــاول قــدر الإمكــان التّقيُّد بدفتر الشّروط والعرض المقدّم من قِبَل المقاول لإنشاء المشروع حتّى يتمّ تسليمه نهائيًّا. وخلال هذه المدّة من العقد، يتقدّم المقــاول عند إنهاء كلّ شطر من العمل بإيداع فــاتورة مســتحقّاته، نقــوم بالتأكّد من صحّتها وبعد ذلك تُمْضَى من طــرف المســؤول عــن المحاسبة لتنتقّل أخيرًا إلى الخزينة الماليّة الّتي تدفع بــدورها المبلــغ إلى حساب المقاول"

تذكّر فجأة أنّ خليل هو مدير الخزينة إن لم تخنه الذّاكرة وفكّر في الاتّصال به لاحقا.

"إذًا فالمراقب الوحيد هو المحاسب، أي ما كان يفعله مراد تمامًا قبل أن يوقف؟"

"هذا صحيح"

"وهل وقعت تزويرات مماثلة من قبل؟"

"لا أظنّ ذلك، لم يسبق وأن صادفت ذلك طوال مســيرتي في العمل"

مَرّ فاصل صمت قصير.. حَكّ أحمد فروة رأسه بالقلم الّــذي بيده. تزحزح في مكانه لينفض عن جسمه أردان القلق.

"بما أنّك تؤمن ببراءته فلماذا لم تقم بتقديم يد العون لزميلــك وتشهد لصالحه؟!"

طامن الرّجل رأسَه إلى الأرض مفكّرا ثمّ رفع وجهــه ورمقــه بنظرة منكسرة مفعمة بالحسرة والشّعور بالذّنب.

"كنت في موقف ضَعف لم يسمح لي بالتّصرف حســب مــا تقتضيه الأمور، لم أكن أملك الأدلّة الدّامغة، زد على ذلك وظيفتي.. ألا تستحقّ أن أحافظ عليها؟! لدي خمسة أولاد".

هزّ رأسه موافقًا واكتفى بالنّظر إلى مفكّرته.

"ما هو رأيك في فلاوي البشير؟".

"لا يعبأ بأحد طالما هناك مال كاف لرشوة الجميع".

"لكنّه لم يتهم قط في قضيّة بطّيّب على الــرّغم مــن تورطــه الواضح".

مال بجسده إلى الأمام ووضع مرفقه فوق سطح المكتب.

"هذا صحيح ولكن المبالغ الجيّدة كفيلة بإبعاد التّهم"

هزّ كتفيه وكأنّ الأمر مسلّم به.

"كيف حصل على كلّ هذه المشاريع في نفس المدينــة. ألــيس هناك مقاولون آخرون؟"

"بالطّبع هم كثيرون ويعانون البطالة بسبب الأزمة المالية.."

توقّف هشام عن الكلام والتفت أحمد صوب المدخل عند سماع طرْق على الباب ولكن الصّوت ما لبث أن اختفى فجأة، وواصــل هشام ما بدأه قائلا:

"أتركنا من الهموم، قد يكون أحد الزّملاء.. أين كنا.. آه نعــم كان يتّفق مع مجموعة من المقاولين الكبار ذوي الكفاءات العليا ومع الإدارة السّابقة عند عرض مناقصة وطنيّة لإيــداع ثــلاث ملفّــات للدّخول في المناقصة دون أن ينشر الإعلان"

"ولكن كلّ مناقصة ينبغي لها أن تعلن في الجرائد"

"هه.. لم أقل لك عكس ذلك إنّما تنشر في جرائد الشّرق الجزائريّ ومن أين لك أن تجدها، والمرحلة الحاسمة في العمليّة أن يقضي الاتّفاق بجعل عرض البشير فلاوي الأقل تكلفة وأقلّ مدّة للإنجاز".

"هكذا إذن يفوز بالمشاريع بطريقة قانونيّة ويسدّ الطّريق أمام رجال أعمال آخرين!".

"مَن هم المعنيّون في الإدارة بالاتّفاق مع المقاولين؟"

ظهر القلق فجأة على ملامحه ولاحظ ارتباكا من خلال حركة يديْه اللّتين حرّكتا النظّارة ثم اهتزاز رجليه.

"لا أستطيع أن أجزم من بالفعل فهذه القرارات تتّخذ عادة من قِبَل أشخاص مختلفين؛ فالمدير ليس مسؤولا لوحده كما تتخيّل، بل هناك لجنة كاملة تتكوّن من عدّة أشخاص وتتغيّر باستمرار على حسب الظّروف".

ساد الصّمت لمدّة عشر ثوان سقط خلالها القلم من يدي أحمد على الأرض فمال بجسمه إلى الأسفل ليلتقطه ثمّ عاد يقول:

"ما رأيك في زهيّة برّاشد؟"

انحرفت زاويتا فمه عن ابتسامة ماكرة.

"فاتنة، جميلة وجذّابة، إذا أقبلت فتنت وإذا أدبرت أهلكت، فماذا أتكلّم وماذا أقول ومن أين أبدأ؟!"

بدَا حالِمًا وهو يشيح ببصره نحو الفراغ، افتعل ذلك لإضفاء جوّ من المرح، ارتسمت على وجه أحمد ابتسامة طفيفة.

"أقصد ما هو رأيك في شخصيّتها كزميلة لك في العمل، أعني كفاءاتها، دورها في المديريّة، هل هي نزيهة، هل هي نظيفة. علاقاتها

بأفراد هذه المؤسّسة داخلها وخارجها؟!".

"إنّها تبدو هادئة طوال الوقت، وصارمة أيضا. كانت تدير تقريبا كلّ الأعمال بالنّيابة عن المدير. كان يضع فيها ثقة عمياء".

لم يستغرب أحمد هذا الأمر بل رآه منطقيا بالنظر إلى العلاقة الّتي تربطهما.

"هل كانت تمضي الأوراق عوض المدير؟"

كان سؤاله مباشرا و لم يرى أي أثر للدهشة على وجه محدثه.

"نعم أحيانا. أعني... في حالات خاصّة فقط".

"ما هي الحالات الخاصّة مثلا؟".

نظر إليه من تحت حاجبيه المستقيمين.

"عند تغيبه خلال العطل أو السفر لأداء مهمّة. فتقوم بالإمضاء نيابة عنه"

"ولكن هذا غير قانوني؟"

"أعلم هذا ولكن للضرورة أحكام".

بدأ هشام يشعر بأنّه يتخطّى الحدود، فشعر بضرورة التّوقّف عند هذه النّقطة.

تزاحمت الأفكار داخل جمجمة أحمد. حاول التّحكّم فيها وتكوين صورة واضحة ولكن دون جدوى. بيد أنّه لم يجد رابطا بين كلّ هذه الأدلّة. نهض من مكانه وتصافح مع الرّجل معلنًا نهاية المقابلة.

"تشرّفت بمعرفتك أيّها الصّديق، شكرًا لك".

"الله يسلّمك أخي. مرحبًا بك في أيّ وقت، أنت تعلم الآن مكان المكتب"

-19-

تكوّمت المباني وتراصّت في بشاعة وفوضى؛ ألوان صارخة غير مناسبة للقرميد أو واجهات غير متناسقة بحيث بدت المدينة كومة من الإسمنت المنحوت بيد نحّات مخمور. أشعل أحمد غمّازات الانعطاف ثمّ دار بالسّيّارة جانبًا وركنها.

أتى حارس الموقف وطلب أجره مسبقًا. دسّ يده في جيبه ونظر إلى الخمسين دينارا مطوّلا قبل أن يعطيها له. ترجّل من السّيّارة ثمّ اتَّجه نحو المبنى الموازي للحديقة العموميّة وحمل معه الملفّ إلى هناك.

كان المبنى من الطّراز الكولونياليّ بني إبّان الاحتلال بداية القرن الماضي ويتّشح بزخرفاته المميّزة على الأفاريز الممتدّة على طول الواجهة. تمتاز الواجهة بنوافذ طويلة ومقوّسة، يذكّر شكل مدخله بالطّراز النّيوكلاسيكيّ المستعمل في أوروبا خلال القرن التّاسع عشر. علّقت فوقها لافتة "بنك الجزائر الدّاخلي".

كان عامل الاستقبال مشغولا بوضع الشّيكات أمام الصّرّاف حسب صفّ المنتظرين، لا شك أن المراقب في مكان آخر، على الأرجح كان في المقهى. توجه أحمد نحو المكتب الّذي يقع إلى اليمين مباشرة حيث قرأ الحروف على لوح الباب. "سكرتيرة". دق الباب برفق ثمّ سمع نداءا يسمح له بالدخول.

وراء مكتب فخم جلست امرأة في عقدها الثالـــث، تنظـــر إلى طلاء أظافرها تارة وإلى الآيفون طورًا. كانت تهمّ بالرّدّ على رســـالة وردتها في تلك اللّحظة الّتي عقبت دخوله، لم ترفع رأسها نحوه وكأنّه لا أحد.

"السّلام عليكم"

رفعت بصرها ونظرت نحوه متفحّصة شكله من قدميه إلى رأسه ودون أن تزحزح أصابعها المطليّة عن شاشة الهاتف، رنّ صـــوتها في الحجرة مُعلنًا عن دخولها الخدمة

"سلاام. نعم؟"

"أريد رؤية برافيف قادة."

دون أن تتفوّه بكلمة رفعت سمّاعة الهاتف مباشرة ونقرت على رقمين.

"قادة؟ لديك زائر."

تنظر مرة أخرى إلى أحمد وتسأله:

"من أقول له؟"

"أحمد.....".

قبل أن يتّجه إلى مكتب قادة وضع بطاقة تعريفه هناك؛ لم يـــرد إثارة شكوك السّكرتيرة بوضع بطاقة العمل كما أنّه أتى لزيارة صديق قديم وحسب لم ير داعيًا للفت الانتباه. وجد الرّجلَ بانتظاره هناك. كان برافيف يجلس وراء مكتبه في هدوء. له بشرة سمراء ضـــاربة في العمق وعينان لا تعبّران عن شيء وأنف ضخم مستقيم وشامة علـــى خدّه الأيسر. كان معتدل القامة ممتلئَ الجسم، يرتدي قميصا أبـــيض اللّون وسروالا أسود ويضع حول عنقه ربطة زرقاء داكنة

"أحمد! كيف حالك تفضّل، لا تصطنع الخجل هيّا تفضّل!"
"حاضر يا سي المدير، تبدو مهذبا وراء هذا المكتب"
حدجه بنظرة خاصّة.
"لماذا تبتسم هكذا؟"
"لو رأوك حين كنت تربّي الكلاب في بابا علي وحين كنت تسرق النّحاس من دكّان عمّي الميلود لما تركوك تعمل في هذا البنك"
"وأنت نسيت نفسك؟ سفّاح القطط وأعظم رامي حجارة في الحيّ كلّه، ذكّرني كم من ندبة خلّفتها في رؤوس الآخرين!، إذا بدأت بالعدّ فلن يسعني اليوم كلّه لإحصاء ضحاياك"
"آه يا للأيّام عِيشْ تْشُوفْ كيف كنت وكيف أصبحت!"
تطرّق أحمد خلال حديثه عن الملفّ الّذي يحمله معه وأخبره عن القضيّة في إيجاز وطلب مساعدته على فحص الملفّ.
"في هذه الحالة أنصحك باستشارة رجل خبير في هذه الأمور. ولكنّه الآن متقاعد لذا سأتّصل به لأعلمه بقدومك".
التقط قطعة صغيرة من الورق ثمّ خطّ عليها اسم الخبير الكامل مرفقا بعنوان إقامته. تحدّثا لوقت يسير ثمّ وقف أحمد من مكانه ومدّ يده مصافحًا، تشابكت الأيدي واهتزّت حتّى ابيضّت أطراف الأصابع من الضّغط وافترقت في الأخير.
كان المبنى مكوّنًا من ثلاثة طوابق كلّ طابق يحتوي على شقّتين متقابلتين، كانت رائحة العفن في المدخل كريهة جدًّا. صعد الدّرج إلى الطّابق الأوّل وانعطف إلى اليمين، وقف أمام باب شقّة كتب عليها الاسم الكامل كما في الورقة. نقر على الجرس الملتصق بالجدار

وانتظر واقفًا، وبعد لحظات قليلة سمع وقع خطوات تقترب. فتح الباب عن وجه طفوليّ مشرق، ذعرت تلك الطّفلة ذات السّنوات العشر وهي تنظر إلى خيال رجل غريب. انتظر عشرين ثانية ليسمع صوتًا آخر شبيهًا بمحرّك سيّارته. خشخشة عنيفة وخفق نعلين على الأرض. تنحّت الطّفلة عن ركام بشريّ، كان يبدو كهيكل عظميّ مكسوّ بشمع أصفر. يضع فوق أنفه المجعّد عند جانبيه نظّارة طبّيّة سميكة الزّجاج، لم يتبيّن أحمد من خلالهما شكل عينيه، ولكنّ مظهره الوقور ونظرته الهادئة أضفت عليه هيبة تتناسب مع سِنّه المتقدّمة. نظر إلى الزّائر باهتمام متفحّصًا مظهره من خلال نظّارته السّميكة. سعل بشدّة حتّى تراكمت الدّموع في زاويتي عينيه.

"السّلام عليكم. الحاج علي؟".

"نعم بالضبط، ولابد أنك..."

كان بالكاد يتنفس وأصدرت رئتاه صفيرا مزعجا.

"أحمد...." أجاب أحمد.

"آه. أنا آسف لم أعرفك في البداية. تفضّل. تفضّل."

قاده العجوز نحو صالة على يسار المدخل مباشرة. كان المكان معدًّا للضّيوف بما فرش على أرضها من بساط مزركش بخطوط متداخلة، وما رتّب فيها من أثاث أنيق. رأى أحمد على الجدار المقابل للنّافذة المطلّة على الخارج خزانة من خشب البلّوط رفّت عليها كتب القانون وّمجلّدات للطّبريّ وتفسير القرآن وحتّى بعض روايات وليام فولكنر الدّوس هكسلي وتولوستوي. جلسا معًا على أريكة مبطّنة بالدّيباج وقد أعجب أحمد بذوق الرّجل في انتقاء الكتب وراح يختلس نظرات خاطفة إلى الرّفوف، وجرى بصره سريعًا بين

عناوينها، التّنويم المغناطيسيّ لكولن ويلسون، رسائل الجاحظ، مقامات الحريريّ وبديع الزّمان الهمذانيّ حتّى إنّه لمح بعض الكتب أدهشه حضورها هناك، كأجاثا كريستي ودان براون جورج أورويل. وضعت أمامهما مائدة زجاجيّة، لها أرجل على شكل انسيابيّ من الفولاذ اللاّمع. ردّد أحمد بصره بين تلك الكتب الّتي رتّبت بعناية وتناسق مع شكل الخزانة وقد أذهله تنوّعها واشتمالها على كافّة الأذواق.

"قل لي كيف أحوال فضيل."

سأل الرّجل فجأة بعد أن استقرّ بهم الجلوس.

"بخير. الحمد لله". أجاب بتؤدة لكيلا يثير رئتيه.

"قال لي برافيف أنّك تحتاج إلى استشارة"

"نعم. في الحقيقة أشتغل على جريمة قتل حدثت منذ أيّام. قادني التّحقيق إلى هذه الوثائق"

وضع الملفّ أمامه.

"أريد منك أن تتأكّد إن كانت مزورة بالفعل".

التقط الرّجل المسنّ حزمة الأوراق الّتي بداخل الملفّ. وجّهها نحوه ثمّ تناولها الحاجّ علي بكلتا يديه وكأنّه يخشى إسقاطها. انتزع نظّارته ووضعها على الطّاولة وتناول نظّارة أخرى كانت في جيب صدره. بعد خمس دقائق من الصّمت استردّ بصره فجأة ورشق أحمد بنظرة ثاقبة وكأنّه ينتبه له لأوّل مرّة.

"لأوّل وهلة تظهر الأوراق بشكل عاديّ ولكن بالتّدقيق سنكوّن فكرة أخرى حولها" قال الحاج علي بصوت خفيض خشية أن يُذهب وتيرة تركيزه.

أعاد النّظر مرة أخرى إلى تلك الأوراق بتمعن وقربها إلى وجهه حتّى كادت أن تلامس أرنبة أنفه ثمّ وضعها على الطّاولة.

"دقيقة من فضلك!"

نهض من مكانه واقفًا وبذل جهدًا غير يسير للاستقامة. سمع أحمد طرطقة مفاصله وهو يقف منتصبًا بجسمه الهزيل. سعل بشدّة وهو يتجه نحو الخزانة الّتي تلاصق الجدار المقابل للمدخل. فتح أحد أدراجها الخمسة ودسّ يده ليبحث عن شيء ما، وحين عاد إلى مجلسه كان يحمل في يده عدسة مكبّرة. نظر من خلالها إلى التّوقيعات في قاع الصّفحة واستغرق في التّمعّن. رفع رأسه أخيرًا وفي عينيه نظرة تنمّ عن اكتشاف جديد ولكنّها سرعان ما خبت بعد أن سعل الحاج علي بشدّة هذه المرّة وارتجّ صدره بقوّة حتّى خيّل لأحمد أن رئتيه تكادان أن تُقذفَا من فمه وقد تجمّعت الدّموع على زاويتي عينيه.

مرّر منديلا على محيط شفتيه

"آسف يا بنيّ إنها ضريبة أربعين سنة من التّدخين".

نظّف حنجرته عدّة مرات قبل أن يتكلّم. ثمّ قال بصوت يشوبه صفير رئتيه:

"إنّ توقيع هذه الأوراق وطريقة كتابة الأرقام مقارنة ببعضها البعض تبيّن أنّها ليست متطابقة تماما. هناك خلل في الخطّ"

قسّم الأوراق إلى مجموعتين ثمّ أشار إلى إحداهما.

"كلا المجموعتين يحمل توقيعًا مشابهًا للآخر ولكنّها ليست متطابقة في كلّ شيء فهناك هفوات."

"إذن هي مزوّرة بالفعل؟"

تساءل أحمد بشغف وقد بلغ به الاهتمام مداه.

هزّ الحاج علي رأسه الأبيض وأومأ بيده إلى أحمد أن يقترب من الورقة وينظر من خلال العدسة المكبّرة.

"انظُرْ إلى حركة القلم هناك بطء" أشارت سبّابته إلى الإمضاء في قاع الصّفحة.

"لو تمعّنت جيّدا في الكتابة فستجد أنّ هنالك تماثلا في الجرّات القلميّة وسمك الخط. ولكنّ الفرق الوحيد بين الخطّين هي النّهايات الّتي لا يجب أن تنتهي بخطوط سميكة في التّوقيع الصّحيح."

مرّر أصبعه مع خطوط التّوقيع وأحسّ أحمد بأنفاسه الحارّة المشبعة برائحة التبغ.

"القلم المستعمل هنا هو نفسه ولكن مواقع الوقوف ليست بالكيفيّة نفسها. هذا ما يؤكّد محاولة شخص ما محاكاة التّوقيع الأصليّ".

هزّ الرّجل رأسه وحرّك كتفيه إلى الأعلى.

"ولكن توقيع أيّ شخص لا يمكن محاكاته بهذه السّهولة، لابدّ أن يكون هذا الشّخص أحد الموظّفين الّذين اعتادوا التّردّد على مكتب الضّحيّة"

"نعم بل أقرب ممّا تتصوّر فمعظم الشّيكات الّتي تزوّر. تكون من طرف أحد أبناء العائلة أو بعض الأصدقاء المقرّبين، وفي بعض الحالات حتّى من الأولاد أو الزّوجات. إذن لابدّ أن يكون أحد زملائه من نفس المكتب، أو في مكان ما في مبنى الإدارة. قد يكون الحارس وقد يكون المدير. مثل هذه المحاكاة غالبا ما تتطلّب وقتًا وتدقيقًا."

وافق بإيماءة من ذقنه، مقتنعًا بالأدلّة الدّامغة الّتي يقدمها أمامــــه الآن على طبق من فضّة. علم أن هناك حلقة مفقودة في القضيّة، تمويه مقصود من طرف أحد الأشخاص. إن كان على حـــقّ وتبـــيّن أنّ شخصًا ما عبث بالأوراق فإنّ بطّيّب مراد هو الشّهيد في هذه القصّة من بدايتها إلى نهايتها وقد بدأت الفجوات بـــالظّهور كشـــقوق في حائط هائل بعد زلزال عنيف.

اضطرب العالم من حوله. تحرّكت الظّلال حوله كأنّها أطياف غير مرئيّة. وضع قدميه في درب شائك. هناك في نهاية النّفق لاحت له النّهاية قريبة ومحتومة. عاند قدره بهروب يائس. هــــروب مـــن ذكريات طفت إلى السّطح. ذكريات لا يريد تذكّرها أبدًا... ماض مضى ولم يعد له وجود.

التفت حوله في حركة متلهّفة ومترقّبـــة، يتـــوجّس الخطـــر ويتسرّب القلق إلى نفسه المكدودة، بدأ يحيا وقتا عصيبا. استحال معه الهدوء والسّكينة. انحدرت قطرة عرق بـــاردة علـــى جبينـــه الرّطب لتتوقّف عند مشهد مرعب. في مكان ما، خلـــف شـــقوق الذّاكرة ووراء الظلال الدّاكنة شعر بتخاطر غريب يخترق جمجمته نافذًا نحو لبّه. أعقبه إحساس بالخزي والعـــار... «مـــمَّ الهـــروب والاختباء ووصمة العار تخلّدها الأيّام؟! إلى أين المناص وهو سجين ماض ليس ببعيد؟! ولكنّه ماض لن يعود. ماض لم يعد له وجود.»

-20-

انكمش على نفسه ولفّ يديه حول رجليه. سقط في هوّة نفسيّة لامتناهية. عمّا قريب سيقدّم كمجرم أمام وكيل الجمهوريّة. سيضربون بقوّة هذه المرّة، ستكبر أجيال وتليها أجيال أخرى بينما يمضي هو ما تبقّى من حياته داخل حجرة لا تتعدى خمسة أمتار مربّعة.

كانت الزّنزانة عالية السّقف بها كوة ضيّقة على الجدار الفاصل بين الزّنزانة وحجرة الحراسة وكان الوقت يمرّ ببطء شديد. نهض من على الأرض وجرّ خطواته الكئيبة نحو مقعد اسمنتي يتّصل بالحائط المقابل له. استلقى على ظهره وشابك ذراعيه خلف رأسه ثمّ حدّق إلى السّقف بوجوم وحاول أن ينام ولكن دون جدوى. كان المكان يشعّ بنور باهت يفيض من مصابيح النّيون المعلّقة في السّقف. حاول أن يسترخي ويطلق عنان أفكاره خارج حيّزه المادّيّ ولكنّ طنينا مستمرّا كان يصدر من مكان ما أزعجه، وظنّ مراد أن له علاقة بفتحات التّهوئة، كان ينظر إلى الشّقوق الّتي تشكلت على السّقف ورسمت حرفX. مال إلى الأمام واتّكأ بمرفقيه على فخذيه ودفن وجهه بين يديه وأجهش بالبكاء...

بعد لحظات اقتربت أقدام من الباب ثمّ سمع هسهسة مفاتيح تلتها طقطقة داخل القفل. وأثناء ذلك صدر صوت حركة مفاجئة أتت من

بعيد واستمرّت في الارتفاع وكأنّ صاحبها قادم نحو الباب. استمرّ ذلك الصّوت وبدا يتّضح بعض الشّيء وكان مصحوبا بكلمات شتم بذيئـــة. سقط شيء ما على الأرض كطاولة أو شيء صلب وكأنّ هناك عراكًـــا خلف الباب. ارتفع الضّجيج بمجيء أقدام أخرى من الأرجـــح أنّهـــا لشرطيين آخرِين انضمّوا إلى الرّكب وبدوا على عجلة مـــن أمـــرهم، وكأنّهم يجاذبون شخصًا ما أو يسوقون ثورًا هائجًا إلى المذبحة.

"أيّها الحمقى ابتعدوا عنّي! لا تلمسني أنت، ابتعد!...".

تكلّم ذلك الصّوت خلف الباب.

ثمّ تناهى إلى سمعه صوت طقطقة أعقبها تألّم وأنين أصدر الباب صريرا مكتوما وهو يفتح وظهر من خلاله شرطيّ ضخم، بوجه قاس ومتحجّر يبدو من مظهره الصّارم أنّه يمتثل لأوامر شـــخص آخـــر. عندها تقدّم شرطيّ آخر قصير القامة يميل إلى البدانة توحي نظراتـــه المتفحّصة بالبلادة والقسوة. كان يلوّح بهراوته واضعا إيّاها بين إبهامه وسبّابته. ارتعد مراد بشدّة عندما شاهد تلـــك الوجـــوه العابســـة والأيادي الضّخمة وهي تتلاعب بالهراوات وتترنّح ساحبة معها الهواء يمينا وشمالا. تحوّل اهتمامه بغتة إلى مصدر الضّجيج أين رأى شرطيّين يقتادان شابًّا مقيّدا بالأصفاد

"اترُكوني! أفلتني!... جبناء أنتم جبناء"

بدا غاضبا بشدّة وهو يقاوم الدّفع والرّكل. تذكّر مراد لقطات الكاتش الّتي كان يشاهدها على التّلفاز. عندما يصارع المقاتل مـــن أجل البقاء في الحلبة. يقول المعلّق في رأس مراد:

«المباراة مشتعلة والآن اثنان ضدّ واحد، إنّه يتلقّـــى ضـــربات جنونيّة، يمدّ يده إلى الطّرف الآخر، سيستعين بزميله خارج الحلبـــة،

مهلا لقد أخفق من جديد... سقط على الأرضيّة، يا له من مشهد!! أوو.. لا.. ركلات قويّة تنهال عليه... سيّداتي وسادتي إنّـــه يقـــاوم عمليّة الإخضاع بشجاعة أسطوريّة..».

كان الفتى يقاوم دون أن ينسى أن يطلق سِبَابًا مع كلّ تنهيدة، كان يسبّ كما يتنفّس، كان يلهث ويقاوم.

«سيّداتي وسادتي إنّه عند العتبة الآن، هل يمكن أن يصـــمد، لا يمكنني أن أصدّق هذه البسالة الّتي يقدّمها هذا الفـــتى.. أووو لا لالا أين الحَكَم؟ ألا تشاهد الضّربات غير القانونيّة؟! إنّها تحـــت الحـــزام مباشرة ربّاااه...»

تدحرج الرّجل داخل الزّنزانة يمسك بخصيتيه ويتألّم من الضّربة الّتي وجّهها له الشّرطيّ بين فخذيه. كانت طريقتهم الوحيدة لكـــبح هذا الحصان الجامح الّذي لا يروّض إلاّ بانتزاع الأعضاء الحسّاســـة. تقدّم ذلك الشّرطيّ الضّخم نحوه يحمل هراوته وبدأت الأوتار تـــبرز من تحت باطن ذراعه. رفع يده بالهراوة وباعد بين ساقيه، ثمّ هوى بها بقوّة على ذراعه.

"هاا الحمار تحرّك! هيّا انهض! انهض من هنا انهض!"

ابتعد ذلك الفتى من أمام العتبة ونهض مترنّحا مـــن مكانـــه إلى داخل الزّنزانة وهو يمسك يده المصابة. كزّ أسنانَه وقد تحرّكت شفتاه بالشّتم ولكن هذه المرّة دون أن يُسمع منه شيءٌ. كانت الضّربة الّتي تلقّاها كفيلة بأن تجعله يقعد في مكانه دون أن ينبس بكلمة. وحوّل الشّرطيّ الغاضب وجهه المظلم نحو مراد الّذي أجفـــل وارتعـــدت أوصاله وهو تحت نظراته النّافذة، وقد برزت أوردة رقبته وبدا كثور المتادور في الحلبة يكشط الأرضيّة بحوافره ويستعدّ للنّطح. غادر آخر

شرطيّ الحجرة صافقًا الباب وراءه بقوّة كانت كافية لتهزّ المبنى كلّه، ثمّ سمع صوت دوران المفتاح داخل في القفل وعمّ الهدوء...

جثا الشّابّ على ركبتيه ويديه ثمّ تقيأ على الأرض في زاوية بعيدة، وحينما هدأ قليلا التفت ليلقي نظرة عابرة على المكان، ووقع بصره على مراد، ولكنّه تجاهله وتمدّد على المقعد بجسمه النّحيل وصدره يعلو وينخفض برتابة، كان الثّور يلتقط أنفاسه.

خيّم الصّمت من جديد على المكان وقبع مراد على الأرض مستندا بظهره على الحائط. نظر إلى القيء بصورة فجّة تثير الاشمئزاز ثمّ استردّ بصره وكان الفتى قد غفا خلال ذلك. نظر إليه وكان يبدو بوجهه الأبيض النّحيف قرير العين وكأنّه في غرفة فندق خمسة نجوم، كان يستدير بجسمه ذات اليمين وذات الشّمال، حتّى خيّل إلى مراد أنّه سيرقد ثلاث مائة سنة وسيظل خلالها وحيدًا في دوّامة من الجحيم لانتظار مصيره المحتوم.

بعد أن استيقظ لاحقا من النّوم أخذ يتفحّص المكان حوله لأوّل مرّة منذ دخوله.

حملق مراد في الباب متحاشيًا المتاعب. قد يكون الرّجل خطيرًا ممّا يعني الوقوع في مأزق على الرّغم من ذلك أحسّ بحرارة بصره.

"أحمم أحمم"

أدار مراد نحو الصّوت عنقه والتقت نظراتهما في تلك الآونة. تلاشت مخاوفه فورًا وبدت ملامح الفتى مسالمة لا أثر للعنف عليها.

"منذ متى وأنت هنا؟"

سأل الفتى وهو يحكّ موضع الضّربة على كتفه.

بدت بقعة من اللّون الأرجوانيّ والبنّيّ المصفرّ.

"منذ اللّيلة الماضية" أجاب مراد وقد بدت عيناه تحت الإضـــاءة الخافتة كحفرتين في وجهه.

"كم من الوقت وأنا نائم؟"

قال ذلك وأشاح نظره نحو الباب ثمّ نهض من مكانه.

"لمدّة ساعة تقريبا، كنت تشخر بصوت مرتفع، لابـــدّ أنّـــك متعب جدا؟"

"هه حقًّا؟! هل شخرت؟ لم أكن أعلم بأنّني أشخر أثناء نومي"

أظهر ابتسامة ودّيّة ثمّ توجّه نحو الباب في خطو وئيد. تفحّـــص قفله ثمّ ألصق أذنه اليسرى وأحسّ ببرودة المعدن فقط. بيد أنّ سمعه لم يلتقط أية حركة من وراء الباب.

"إلى متى سنظلّ هنا؟ بدأت أضيق بالمكان"

ولكن مراد ظلّ صامتًا؛ فكلاهما كان يعرف الجواب مسبقًا

"لن تشرق الشّمس على الأقلّ في هذا اليوم"

-21-

نزعت غطاء القدر المضغوط لترى إن كان المرق قد أصبح جاهزًا، انبعث في المطبخ عرف طيب من الزّعفران، تناولت ملعقة خشبيّة وحرّكت قطع اللّحم والخضر الّتي كانت تسبح في الطّنجرة. أعادت الغطاء إلى مكانه ثمّ ارتدت قفّازا واقيًا وفتحت الفرن، تفحّصت قطع الدّجاج المحشوّة باللّحم المفروم وغرزت في كلّ قطعة عود تنظيف الأسنان، تعلّمت هذه الوصفة من مشاهداتها الكثيرة لقنوات الطّبخ. كانت الأختان كثيرا ما تشكّلان عونًا كبيرا للأمّ وخاصّة في أيّام رمضان. وعلى الرّغم من إلحاح الأمّ لها للتّفرّغ لدراستها إلاّ أنّ كهينة كانت تثابر على تعلّم وصفات جديدة، أحبّت أمّها كأيّ فتاة تتعلّق بوالدتها. ولكنّ الأقدار شاءت أن تأخذها منها لتترك في البيت فراغا هائلا وفي القلب جرحا لا يندمل. طفلة الأمس هي امرأة اليوم، مفعمة بالأنوثة في ريّق الشّباب، لها يدان قويّتان رغم نعومتهما، وقفت أمام المَجْلَى تمسح الغبار عن الأطباق.

أعدّت الصّحون فوق الطّاولة ورتّبت الملاعق والشّوكات على حسب عدد الأشخاص، ألقت نظرة على ساعة الجدار وكانت تشير إلى السّادسة وخمس دقائق. بعد دقائق فقط ستصل وهيبة رفقة زوجها توفيق وابنيهما رياض وآية. رتّبت هذا الصّباح غرفة النّوم

الّتي تقع في الطّابق الأوّل وأضافت سريرًا صغيرًا لآية، كانت هي آخر من استعمله خلال طفولتها القصيرة. و لم تنس أن تغلّف الفراش لِرياض بالجلد تجنُّبًا لأيّ طارئ خلال النّوم. صبّت كلّ اهتمامها في طريقة وضع شرائح اللّحم وسط المرق والبطاطا المقليّة، فتحت الثلاّجة ثمّ انتقلت إلى الطّاولة ووضعت قارورتي بيبسي على سطحها. ابتعدت خطوتين إلى الوراء لتلمح المظهر العامّ للمائدة، بدا الارتياح واضحًا على وجهها الرّيّان وخدّيها الموردّين لّما استطاعت تحضير العشاء في ظرف وجيز. كانت أجواء المنزل تلائمها، فهي لم تعتد بعد الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر لساعات وانتظار الأوامر والنّواهي من شخصٍ غبيّ.

كان مظهرها في المنزل يختلف كلّيًّا عن مظهرها خارج البيت، كانت تبدو سعيدة وهي ترتدي سروالا رياضيّا ضيّقًا، ثلاث خطوط بيضاء متوازية تمتدّ من على جانبيه، وتلك الحروف البارزة على المؤخّرة تشكّل كلمة ADIDAS، تلفّ حول خصرها مئزرًا مليئا بالورود الزّهريّة، شعر كستنائيّ، شدّ بمشبك إلى الأعلى وتفرّعت أطرافه نحو السّقف، تهتزّ مع كلّ حركة من خصرها. تدلّت قلادتها الذّهبيّة من جيدها النّاعم ولمست نهايتها مفرق الثّديين.

بعد إعداد الطّاولة نزعت المئزر من وسطها وهمّت إلى الطّابق الأوّل لمناداة والدها، كان لا يزال منزويًا في غرفته كعادته ككلّ مساء، يفتح خصاص النّافذة ويجلس على حافّة كرسيّه الهزّازليحلّ تقاطع الكلمات، كان مفرنسا بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، يتكلّم بالفرنسيّة. يشاهد القنوات الفرنسيّة. يقرأ بالفرنسيّة ويشتم بالفرنسيّة. كلّ شيء في حياته يتمركز حول هذه اللّغة. وكأنّها

إكسير الحياة. كان من النّوع الّذي يعاتب الجيل الحالي على عدم تمكّنه من هذه اللّغة، وكان يردّد كثيرا هذه العبارة "جامعيّ ولا يعرف كتابة طلب خطّيّ!" أو "مهندس ولا يفرّق بين المؤنّث والمذكّر!" نظر إلى ابنته -الّتي سدّت مدخل الغرفة-من فوق حافة نظّارته.

"بابا اتّصلت بي وهيبة الآن، قالت لي أنّهم في طريقم إلى هنا، سيصلون بعد عشر دقائق"

هزّ رأسه معلنًا بذلك استعداده لاستقبال زوجها.

رنّ جرس الباب عندما كانت كهينة في بيت الماء تضع مزيل رائحة العرق على إبطيها، فقد جعلتها حرارة المطبخ تتعرّق قليلا، من حسن حظّها أنّها استحمّت مباشرة بعد رجوعها من العمل، خفق قلبها عند سماع الجرس. نزلت إلى الطّابق الأرضيّ ثمّ اتَّجهت نحو الباب مهرولة، ولّما فُتح الباب رأت وهيبة تقف أمامها وهي تحمل بين ذراعيها ابنتها وخلفها مباشرة توفيق يمسك بقبضة رياض الصّغيرة، تعانقت الأختان طويلا وبحرارة، وأفسحت الباب لزوجها وألقت عليه التّحيّة. دلف الأربعة إلى الدّاخل وأعادت غلق الباب مرّة أخرى، اتَّجهت عينا كهينة إلى الزّائر الجديد في تفحّص وإعجاب، فامتدّت يداها إلى الطّفلة الصّغيرة واحتضنتها إلى صدرها، كانت تداعبها برقّة فابتسمت على إثر ذلك، كانت تكوّر قبضتها الصّغيرة وتحشرها داخل فمها الصّغير، وسال اللّعاب على ذقنها وصدرها، وبرزت في فمها سِنّان كحبّتي الأرز، وأثناء ذلك شعرت بجسم صغير يلتصق برجلها الأيسر، التفتت إليه فابتسمت عندما سقط نظرها على رياض وهو يعانق خالته. كانت نظرته بين التّرجّي والحزن، جثت

على ركبتها واحتضنته ثمّ طبعت على خدّيه المنتفخين قبلتين أودعتهما كلّ حنانها.

اجتمع شمل العائلة بعد طول غياب حول مائدة العشاء وساد جوّ حميميّ قلّما يحدث في هذا البيت، فقد بات لكلّ شخص مسؤوليّاته وارتباطاته وما تبع ذلك من رحيل الأسرة إلى معسكر منذ تقاعد الأب. قهقه توفيق بينما اكتفى الآخرون بالابتسام بسبب حادث طريف وقع فيه رياض منذ أيّام. لكزتْه وهيبة على ركبته تحت الطّاولة ليمسك عن القهقهة، استردّ هدوءه فورا بينما راحت هي تتكلّم لتداري ابتذاله، فقالت تتحدّث عن رحلتهم نحو معسكر:

"لقد شاهدنا في الطّريق السّيّار حادثًا مروّعا، سيّارة قولف مع شاحنة، لو رأيتم المشهد..."

ثمّ دورت عينيها وهزّت رأسها لتعبّر عن أهمّيّة ما تقول. على حين راح الأب يتساءل باهتمام:

"وهل نجَا الرّكّاب؟!"

ارتفع حاجبَا وهيبة المستقيمان وتوقّفت الملعقة في منتصف المسافة إلى فمها.

"بابا. القولف طُحنت، لم يبقَ منها شيء، أكيد هناك موتى ولكن لا أدري كم من شخص لقي حتفه هناك. عندما مررنا بجانبهم كانت الحماية المدنيّة والجمارك تطوّق المكان بيد أنّي لم ألق الشّجاعة للنّظر إلى داخل السّيّارة"

وتدخّل توفيق في تلك اللّحظة ممازحًا زوجته وإن بدا مظهره جادًّا فقال بتهكُّم:

"هل تريدين إفقادي الشّهيّة بالحديث عن الموتى؟"

فردّت عليه بنفس الطّريقة.

"وهل يفقد الغول شهيّته؟!"

وانفجر البقيّة ضاحكين، حتّى الأطفال شاركوهم الضّحك وإن لم يعرفوا سبب ذلك.

كانت كهينة تختلس النّظر إلى الزّوجين وهما جالسان مع بعضهما، توفيق ببشرته القمحيّة وعوده النّحيف وهي ببشرتها العاجيّة وجسمها الممتلئ، كان هو أطول منها وهي أجمل منه، هو ذكيّ حليم وهي رقيقة عاطفيّة، اختلاف في المظهر، تناسجُ وذوبانُ كليهما في الآخر يُشكّل أسرة سعيدة.

كلّ ذلك أثار غيرتها وحرّك عاطفتها و لم تدر كيف استرجعت في تلك الأثناء صورة أحمد، خفق قلبها بعنف فخفضت رأسها متشاغلةً خشية أن يطّلع الجالسون على سرّها وراحت تأكل بدون وعي، أحسّت بعاطفة غريبة تجتاحها فجأة. ولكنّه لم يبد أي نيّة واضحة للزّواج، مجرّد كلمات إعجاب وقُبل بالأساميس، ليست متيقّنة بعدُ من صدق نواياه على الرّغم من شخصه اللّطيف ورجولته المستفحلة، لذا بدا لها التّفكير في الأمر سابقًا لأوانه ولو اطّلعت على ما ينطوى داخل صدره من صدق لتصدّع قلبها شوقًا وحنينًا.

أغراها مشهد الطّفلين وهما يلطّخان ثيابهما الجميلة، آية تسكب الحليب على صدرها، ورياض يلطّخ جميع ملابسه بالمرق وهو يرمق أمّه بحذر بين الفينة والأخرى لمعرفة ما إن كانت تلاحظه أم لا. تخيّلت نفسَها تكوّن أسرة صغيرة تحت سقف بسيط، وتمرّ عليها السّنون لتجد نفسها قد شاخت بجانب زوجها وأمام أولادها. امتدّت السّهرة لساعات. انضمت وهيبة لمساعدة كهينة في غسل

الصّحون الّتي تكوّمت فوق المَجْلَى، كما تركت لزوجها الاهتمـــامَ بالصّغيرين ومراقبة رياض بعدما أرضعت آية ووضعتها في السّـــرير. واستمرّت الأختان في السّمر حتّى ساعات متأخّرة من اللّيل.

-22-

وضع خليل يده على ربطة عنقه وعدّلها قليلا ليسمح للــهواء البارد المنبعث من المكيّف بالمُرور من خلال ياقته. كان يتحدّث عبر هاتفه المحمول، يجلس خلف مكتب فاخر يلمع سطحه الزّجاجيّ كأنّه مرآة مصقولة. وراءه مباشرة وعلى الحائط علّقت صــورة، كلّلــت بإطار ذهبيّ مزركش تمثّل فخامة الرّئيس وهو يقف كالصّنم بجانــب العلم الجزائريّ. ضغط على الزّرّ لإنْهاء المكالمة، وضع الهاتف فــوق سطح المكتب وتمطّى في مكانه ثمّ شابك يديه خلف قذالــه وأخــذ يتثاءب ببطء. نظر إلى ساعة معصمه السّويتش، ثمّ رفع سمّاعة الهاتف إلى أذنه وضغط فوقه على رقمين قبل أن يسمع جوابًا مــن الجهــة المقابلة، كان صوتا أنثويّا هادئًا يدغدغ الحواسّ، ولكن خليل لم يعد يتأثّر بعذوبته مع مرور الأيّام:

"أمينة أجّلي الإجتماع لنصف ساعة، لديّ زائر الآن"

وضع السّمّاعة على الهاتف واتّكأ على المكتب بمرفقيه وشابك بين أصابع يديه تحت ذقنه، مستغرقًا في تفكير عميق.

دُقّ الباب مرّتين كما جرت العادة، ودون أن يأذن للطّارق فُتح الباب ودلفت إلى الدّاخل فتاة في الثلاثين. كــان يكســو وجهها الشّديد البياض طبقة من المساحيق، وبرزت الماسكارا مــن خــلال أهدابها كخطّ قلم لباد أسود، وقد ساهمت البُودرا في إبراز احمــرار

خدّيها. تخطّت العتبة وتقدّمت نحو المدير. كان خليل يحدجها بنظرة صامتة. وضعت يدها اليسرى على خصلة من شعرها تدلّت بجانب صدغها الأيسر، ولكنّها عادت إلى موضعها الأوّل وثبّتتها هذه المرّة بحركة غير مكترثة ولكن دون نتيجة، كان ينظر إليها بعصبيّة، وتخيّل نفسه يقوم من مكانه ليمسك تلك الخصلة المتدلّية بنفسه ويثبّتها بالغراء على جبينها. ارتبكت بسبب نظراته المتفحّصة قبل أن تصوغ جملتها الأخيرة بلباقة بارعة:

"هناك رجل يدعى أحمد بن همنة. يريد مقابلتك"

"نعم كنت في انتظاره، دعيه يدخل!"

اختفت وراء المكتب، وبعد لحظات قصيرة ملأ أحمد فراغ الباب بجسمه الطّويل ومنكبيه العريضين، أحسّ بالهدوء يعمّ في المكان مقارنة بالمكاتب الّتي مرّ بها من قبل، كلّ شيء في مكانه: المشجب، الصّورة، المكتب، الأريكة، السّتائر المسدلة. لا رائحة تبغ متعفّن، لا أوراق مكدّسة. استطاع أن يشمّ خليطا من الرّوائح الزّكيّة، رائحة قويّة لابدّ أن تكون إمّا «إيغو بوس» أو «أنتونيو بونديراس»، ورائحة أخرى لم يستطع تبيُّنها لتركيز الأولى وطغيانها على رائحة الياسمين.

قام خليل نصف قَومَةٍ من الكُرسيّ المريح ومدّ يده نحو يد أحمد المعلّقة في الهواء، تصافح الرّجلان وتبادلا التّحيّة، ثمّ طلب منه الجلوس. ناء الكرسيّ بثقل أحمد فأصدر أزيزًا خفيفًا عند جلوسه. كان أوّل ما وقع عليه بصره تلك الصّورة المعلّقة على الجدار. حدّق إلى ذلك الوجه المألوف لبرهة ثمّ تجاهل الصّورة بالنّظر إلى خليل وكان الأخير يتّخذ وضعيّة استرخائيّة.

"مرحبًا بك، كنت على وشك عقد انضباط قبـــل أن تتّصـــل بـــي، ولكنّي أجّلته لأتمكّن من مقابلتك"

هزّ أحمد رأسه شاكرًا وقال بتحفظ:

"شكرًا لك، لأنّ الأمر يتعلّق بقضيّتنا"

وعندئذ لاح الاهتمام على خليل.

"هل تعرفتم على القاتل؟ أختي لا تنفكّ تتساءل عن هويّته، أنت تعرف كيف يكون شعورها في هذه الحالة"

"في الوضع الرّاهن لا أستطيع إخبارك بالشّيء الكـــثير ولكـــنّ القضيّة تحرز تقدّمًا، وعذرًا على هذا التّوقيت غير الملائم. هناك أمور لا تزال عالقة أريد توضيحها".

"أكيد لا أمانع، تفضل"

"ألم يُلمح يوسفُ قبل مقتله إلى أيّ حادث أو خَطْـــبٍ مـــا في العمل؟" واستدرك:

"لأكونَ أكثر وضوحًا؛ نظنّ أنّه كان ينوي القيام بشيء مـــا في الأيّام الأخيرة من حياته، ولكن لا نعلم ما هو بالضّبط، شيء ما كان يقلقه كثيرًا"

كان خليل يبدو هادئًا وواثقًا من نفسه، لطالما أحَسّ أحمد بعدم ارتياح اتجاه هدوءه الغريب، علمته الإســـتجوابات أن أي شـــخص طبيعيّ وإن كان صريحا أو بريئًا، تنتابه لحظات ارتباك وتـــوتّر أثنـــاء الإستجواب وذلك ما لم يلاحظّه على خليل.

"كان هادئًا ولا أظنّ أنّه كان يخفي شيئًا ما ولو كـــان هنـــاك خطب ما لعلمت من خلال أختي، فهو لم يكن يســـتطيع كتمـــان الأسرار لمدّة طويلة".

"كيف كانت علاقته بزهيّة في الآونة الأخيرة؟"

احتاج خليل إلى فاصل صمت قبل أن يجيب قائلا:

"كيف لي أن أعرف؟ مِن المفترض أن تسألها هي"

وخيّل لأحمد أنّه رأى ظلاًّ من الانزعاج يغلّف على وجهه ولكن سرعان ما تلاشى.

"لابدّ أنّك تعرف من يكون البشير فلاوي؟"

"نعم أعرف أنّه صاحب شركة بناء، ولكنّها معرفة سطحيّة عن طريق العمل"

"جيّد. قبل ثلاث سنوات أدينت شركته بزيادة في تكلفة المشروع، بمعنى آخر اختلاس غير مباشر. ولكنّ الشّركة أبعدت الاتّهام عن نفسها فيما راح ضحيّة ذلك بطّيّب مراد. ولكن ما أودّ معرفته حقًّا. لماذا أبعدت التّهمة عن البشير فلاوي وكأن لا دخل له بالموضوع؟!"

وتركّزت عيناه على حركات خليل وهو يميل بجسمه إلى الأمام ويضع مرفقيه فوق الزّجاج اللاّمع للطّاولة وتلاقت رؤوس أصابع يديه فيما بينها، نظّف حنجرته ثمّ قال:

"مضى زمن طويل على ذلك، كنت حينها رئيس قسم المحاسبة، وأشرفت بنفسي على التّدقيق في دفتر الشّروط والبيان الكَمّيّ لتلك الصّفقة، واكتشفنا خلال التّحقيق أنّ أحدًا من الموظّفين بمديريّة التّجهيزات قام بإضافة مبالغ لأعمال وهميّة لم تجسَّد على أرض الواقع، وتوصّل التّحرّي إلى أنّ بطّيّب مراد هو المسؤول قانونيًّا عن التّجاوز. عمل البشير من ناحيته على دَرْءِ الاتّهامات عن نفسه بتقديم أدلّة دامغة لتبرئته تمامًا.

لم يرد أحمد أن يخبره بالتّطوّرات الّتي حصلت بعد زيارة الخبير، واكتشاف النّقائص في الإمضاءات، ممّا يعني أنّ هناك شخصًا ما قام بخدعة بارعة. وقع بصره مرّة أخرى على الصّورة المعلّقة «ذاك الوجه العابس الّذي لم يتغيّر منذ ستّ عشرة سنة. لم يستطع فهم سبب تعليق هذه الصّورة العابسة في كلّ مكتب، هل هي الوطنيّة، أم العبوديّة؟ لماذا لا يعلّق الأوروبّيُّون صور رؤسائهم فوق رؤوسهم.؟! هل قادة العرب أعظم شأنًا من قادتهم أم أنّ العربيّ شخص منافق بطبعه؟».. تذكّر فجأة تلك المقولة المشهورة لصموئيل جونسون «الوطنيّة هي الملاذ الأخير للأوغاد».

"هل هناك ما كان يحاول إخفاءه عن الجميع؟"

"لا أظنّ ذلك، لكنت علمت بالأمر منذ البداية، لأنّ أختي ستخبرني في كلّ الأحوال".

"ما أقصده هو محاولة إخفائه حتّى عن أعزّ أقربائه بمن فيهم زوجته".

تغضّن جبينُ الرّجل وظهر أخدودٌ بين حاجبيه، فيما راح يحدّق إليه مبديًا انزعاجه.

"الأمور واضحة كما قلت سابقًا. شؤونه الخاصّة لا تهمّك، كما لا ينبغي لك التّمادي فيما لا يعنيك. أنا شخصيًّا لا أحاول معرفة تفاصيل حياته، خاصّة بعد وفاته".

"زهيّة برّاشد ألم يسبق لك أن سمعت بهذا الاسم؟"

أمطره بوابل من الأسئلة ولمح ارتباكًا طفيفًا على نبرات صوته عندما أجاب:

"نعم سكرتيرته الخاصّة، ولكن ما علاقتها بالأمر؟!"

لم يرَ أحمد أنّ الوقت مناسب للخوض في هذا الحديث، لــذلك حاول الاعتذار بكياسة، فقال بصوت هادئ:

"أرجو ألاّ تكون منزعجا من طريقتي في طرح الأســئلة، أنــا أؤدي عملي فقط".

ندت عن خليل ضحكة قصيرة عسيرة.

"وأنا كنت صريحا معك"

نهض أحمد من مكانه واقفا وقد خاب ظنه. تصافح الــرّجلان وغادر المبنى محملا بتساؤلات جديدة وأجوبة تــؤدّي معظمهــا إلى طرق مسدودة، كان عليه الاستعانة بخطة جديدة.

-23-

مرت فترة من الصّمت تخلله صوت احتكاك ظهر مراد بالحائط الخزفي ووقع خطوات ذلك الشّخص السيء المزاج الّذي انقلـــب إلى شخص هادئ، راقبه بعينين ناعستين ومستيقظتين في نفس الوقـــت، وهو يذرع أرض الحجرة بتوتّر، محرّكا يديه ليمسح بهما وجهه ويحك كتفيه في نرفزة.

"أهذه تجربتك الأولى في هذا المكان؟".

توقف الشّابّ في مكانه فجأة والتفت إليه وقد انحرف حاجبـــاه قليلا وصوب نظرات حادة إلى مراد الّذي بدا أنه ندم على مفاتحتـــه بهذا الحديث.

"المرّة الأولى". رد الفتى بصوت يشوبه الأسى وحك قفاه بحركة عصبية

"ما السّبب الّذي جاء بك إلى هذا المكان؟".

ومضت عينا الشّابّ ببريق خافت واتّجه نحو المقعد ثمّ جلـــس بهدوء وقال بنبرة حاسمة.

"أتهمت باختطاف فتاة".

كان يستمتع كون كلامه يلفت انتباه مراد

"اختطاف. كيف ذلك؟" ارتسمت علـــى جبهتـــه خطـــوط متعرّجة.

"اختفت منذ عشرة أيّام، و لم يظهر لها أي أثر إلى يومنا هذا بالرّغم من البحث المستمرّ"

كان الأمر مثيرا ومقلقا في آن واحد. بحث في ملامح الرّجل عن ما يوحي بالخطورة ولكنّه فشل في ذلك.

"ولكن ما علاقتك أنت بالموضوع؟ فهمني"

"هههه... علمت أنّك تفكر في الأمر على هذا النحو يا صديقي. هههه..."

ضحك بعصبية مفرطة وقد برزت أسنانه الصفراء.

"كنت على وشك التقدم لخطبتها ومن أجل ذلك عملت على توفير سبل العيش فاشتغلت في كلّ الحرف تقريبا وعانيت مضض الانتظار. إلا أن والدها رفضني تماما. بل وسخر مني أيضا عندما قال أنه لن يصاهر ابن حداد. في آخر المطاف اتفقنا على موعد للهروب. وقبل ذلك بيومين فقط خرجت من شقة صديقتها على السّاعة الخامسة بعد الظّهر ومضت في سبيلها نحو البيت وشوهدت للمرّة الأخيرة. أظنّك تستطيع تخمين الباقي وأما عن مصيري فهو مرتبط بمدى قدرة الشّرطة على إيجاد المختطف وانقاذ حنان من الأسر".

"أنت في ورطة يا صاح!" صمت قليلا، يقيم كلامه وبدا جادا في قوله.

" لم تقل لي ما اسمك؟"

"عثمان". قال الرّجل.

"تشرفت بمعرفتك عثمان"

-24-

كان الشّعاع الوحيد في الغرفة صادرًا من شاشة الكمبيوتر المسطّحة ذات الخمسة عشر إنشًا. نقر أحمد على الفأرة فظهرت صفحته الشّخصيّة على الفايسبوك. أدخل كلمة في محرّك البحث وبعد عشر ثوان ظهرت قائمة بأسماء متشابهة. ردّد بصره بينها وقرأها بتأنٍّ. وأخيرًا استقرّ سهم الفأرة على أحد الأسماء، فنقر وانتظر. كان تدفّق الأنترنت بطيئا جدًّا ويبعث على التّوتّر وبعد مرور دقيقة وعشرين ثانية -خلال ذلك هشّ قضمتين من السّندويتش- ظهرت صفحة جديدة كانت لشخص آخر وفي الزّاوية العليا صورة لوجه مألوف، طالع الوجه بإعجاب. صور كهينة في البيت. مع طفل صغير تحمله بين ذراعيها. برزت أسنانها العاجيّة في ابتسامة خلاّبة. انزلقت البيبسي في حلقه وأغلق عينيه من شدّة احتراقه بالغاز الموجود فيها. تجشّأ بصوت مقزّز مسموع. ثمّ مرّر ظاهر كفّه على شفتيه وذقنه المبتلّ بالبيبسي. كانت عيناه مثبتتين على الصّور الأخرى. لم تكن تضع صورًا لها باستثناء تلك الّتي على الصّفحة الرّئيسيّة، ولكنّها أيضا لم تكن واضحة. لقد تعمّدت ذلك وكانت تضع خلفيّة سوداء كتب عليها بخطّ أبيض عريض:

«Ne fait pas confiance aux mots; fait confiance aux actions»

كانت بياناتها متواجدة وعرف من خلالها أنّ تاريخ ميلادها 04 ديسمبر 1993. انتابه شعور بأنّها تبادله نفس الإحساس. على الرّغم

من كلّ ذلك تردّد لفترة قصيرة يفكّر في كتابة رسالة أكثر جـــرأة، ويطلب منها الخروج معه في موعد، بالطّبع عن طريق الممازحة تحسّبا لأيّ إعراض منها. وفجأةً وبينما كان يفكّر في صياغة العبارات لمعت في ذهنه فكرة صورة راودته طوال اليومين الأخيرين. ترك الرّسالة في منتصفها وفتح نافذة جديدة وكتب الاسم الجديد في خانة البحـــث عن الأشخاص.

لم ينتظر أكثر من عشر ثوان قبل أن يعثـــر علـــى الشّـــخص المنشود، تفحّص الصّفحة الجديدة وهو يمضغ قضمة أخرى. علقـــت اللقمة في حلقه وهو يحدّق إلى الشّاشة بفم فاغر. قبل أن يســـتوعب المشهد على الصّورة قفز الهاتف فوق الطّاولة ممزّقا هدوء الغرفة. كان الاتّصال من صويلح مهري، ولكن ماذا يريد منه الطّبيب الشّـــرعيّ وفي هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل؟

"ألو.. نعم.. نعم"

كان الصّوت من الجهة المقابلة يعلو وسط ضجيج حادّ.

"ماذا؟... كيف... نعم........ أين؟"

وقف شعر رأسه وهو يحوّل السّمّاعة إلى أذنه اليسرى.

انتصب واقفًا كردّة فعل فســـقط الكرســـيّ وراءه. لم ينتبـــه، تدفّقت البيبسي على السّجّادة. لم ينتبه.

كانت ألكسيس تكساس تصرخ و لم ينتبه.

"عندما تشاهد العصافير تتطاير من دغل فالعدوّ يعدّ لك كمينا"

- سون أتزو -

"من يعرف عدوّه ويعرف نفسه يَقُدْ مائة معركة من دون خطر، ومن لايعرف عدوّه ولكن يعرف نفسه فقد يحرز نصرًا ويلقى هزيمة، ومن لا يعرف عدوّه ولا يعرف نفسه يكُنْ في دائرة الخطر في كلّ معركة"

- سون أتزو -

"اقتلاعك لشجرة ضعيفة لا يعني قوّتك، وسماعك لقصف الرّعد لا يعني أنّك حادّ السمع، ورؤيتك للشّمس لا تعني أنّك حادّ النّظر"

- مثل صيني -

-01-

مضت أكثر من نصف ساعة منذ اقتحام الشّرطة لإحدى الشّقق، بحيّ المنطقة التّاسعة. عمّت الفوضى في المكان وتوافد السّكّان حول المبنى لمشاهدة ما يحدث في الدّاخل. حاول أحمد الوصول بسرعة ولكنّه استغرق وقتا طويلا بسبب انعدام وسائل النّقل في هذه السّاعة المتأخّرة. كان أوّل من التقى به هناك، بدر الدّين رفقة أعوان الشّرطة، يحاولون إبعاد الحشد عن مسرح الجريمة. حيّاه بحركة من يده ثمّ اتّجه مباشرة نحو الطّابق الثّالث، حبس أنفاسه وهو يصعد السّلّم. مستعدّا للوضع الجديد الّذي لم يحسب له أيّ حساب. اكتظّت الشّقّة بأفراد الشّرطة وثقل الهواء بداخلها. وجد هناك فتحي زمالة رفقة ضابط الشّرطة بن ذهيبة يتبادلان الحديث، تخطّاهما دون أن يلتفت نحوهما، ثمّ عبر الرّواق نحو غرفة في نهايته أين تتواجد الجثّة. كان الطّبيب الشّرعيّ يدير ظهره لأحمد حين دخل الغرفة، يقدّم تعليمات ويصدر أوامره لمجموعة من الشّبّان حديثي العهد في الشّرطة العلميّة.

كان المنزل خاليًا من الأثاث إلاّ من بعض اللّوازم الأساسيّة، افتقر إلى اللّمسة الأنثويّة. تقدّم نحو الجثّة بحذر وكأنّه يخشى اكتشاف الحقيقة. حسر الرّداء عن الجثّة، وبرز من خلاله وجه متصلّب ينطق خواءا. نزع الطّبيب قفّازيه حين بدأت الحماية المدنيّة تستعدّ لنقل

الجثّة إلى المشرحة. وقف بجانب أحمد وهو يجفّف عرق جبينه المتفصّد.

"لقد أتيت متأخّرا؟"

"أنا بدون سيّارة" كان يركز بصره على الجسد المتصلّب. تشاغل بإصلاح تسريحة شعره، ثمّ حكّ عثنونه بإبهامه.

"كيف حدثت الوفاة؟!"

"السّكتة القلبية"

"موت طبيعيّ؟"

صمت الطّبيب لوهلة متردّدا ثمّ قال:

"لست متأكّدًا بعد"

"أتقصد أنّه مات مقتولا؟"

عظم اهتمام أحمد وودّ لو ينزع الإجابة من فم الطّبيب نزعا.

"محتمل جدًّا، على أيّة حال سنتأكّد بعد تشريح الجثّة"

حرّك الطّبيب ياقة قميصه ليسمح بدخول الهواء.

"في حقيقة الأمر هناك أكثر من فرضية تقودنا بالاستنتاج بوجود قاتل"

عقف أصبع سبابته وحكّ أرنبة أنفه.

"عندما فحصت الجثّة في بداية الأمر بدَا كلّ شيء طبيعيّا. حتّى شممت رائحة غريبة كانت تنبعث من الجثّة، اكتشفت لاحقًا أنّها رائحة الكلوفورم"

نظر إليه من زاوية عينيه، كما يفعل عادة عندما يشكّ في أمر مريب.

"وما علاقة الكلوروفورم بكل هذا؟"

اضطرب أحمد أمام جهله لهذه المادّة، وأنصت باحترام إلى الطّبيب.

"هو سائل عديم اللّون له ذوق ورائحة حلوة عادة، قوّته تكمن في قدرة 3 ملم منه على تخدير أيّ شخص، كما أنّ أيّ زيادة قليلة تعني توقّف القلب عن الخفقان، وبالتّالي الموت المباشر".

"إذن مات متأثرا بهذه المادة؟"

هزّ صويلح مهري رأسه إيجابًا ووضع أصبعين من يده على صفحة رقبته اليمنى.

"حقن هنا في الوريد، ولكن ذلك تمّ بعد تخديره بوضع قطعة قماش مضمّخ بنفس المادّة على أنفه"

"هذا ما يفسّر عدم مقاومة الضّحيّة للقاتل"

"بالفعل هذا صحيح"

في تلك اللّحظة كان كلّ ما بناه من أفكار، يتقوّض أمامه. ظلّ السّؤال يلحّ عليه مرارًا وتكرارًا

«من يودّ التّخلّص من خليل وما علاقة ذلك بالقضيّة الأولى؟ هناك خيوط غير مرئيّة تحاك في الخفاء.»

ضاق بالمكان والضّجيج فتحرّك خارجًا ليستنشق هواءًا منعشًا. كانت السّماء صافية والنّجوم شديدة اللّمعان حاول التّفكير ولكنّ أعصابه المنهكة منعته من ذلك.

عاد إلى الدّاخل عندما رأى بن ذهيبة يستعدّ للمغادرة رفقة فتحي زمالة.

"إذن ما رأيك؟"

التفت أحمد نحو صاحب الصّوت وكان بدر الدّين يقف أمامه.

"رأيي؟ أرى أن النّوم أفضل شيء يمكن أن أفعله الآن"

بدا منهمكا وهو يقول هذه العبارة.

"لم يسفر التّحقيق عن أيّ شيء ذي أهمّيّة. ولكنّ عجوزًا من الجيران ادّعت أنّها رأت امرأة تغادر الشّقّة هذا اليوم، ولكن نحن نشكّ في شهادتها لأنّها تضع نظّارة سميكة جدًّا"

تغيّرت سحنة أحمد من الفتور إلى الاهتمام. وتذكر فجأة مشهدًا رومنسيًّا مشابهًا. نفس الباخرة الّتي رآها في صور الرّجل من قبل، ولكن لم يظهرًا معًا في أيّ صورة. وقد يكون كلّ ذلك محض صدفة. تذكّر التفاصيل داخل الصّور وحازت تلك اللّقطة الّتي اتخذها خليل فوق ظهر الباخرة على انتباهه. كان ظلّ شخص ما يسقط أمام المصوّر. وقد حدث العكس عندما رأى صورها هي أيضا. كانت تتّخذ نفس الوضعيّة وتبتسم للآلة المصوّرة وظلّ رَجلٌ يسقط على الأرضيّة الخشبيّة يعكس صورة المصوّر. لقد برح الخفاء.

"ما هي مواصفاتها؟"

"قالت أنّها رأت فتاة متحجّبة معتدلة القامة تغادر الشّقّة حوالي الثّانية زوالا"

"هل هذا ما تمكّنتم من معرفته؟"

بدت خيبة الأمل ظاهرة على محيّاه.

"للأسف هذا كلّ شيء"

عاد إلى منزله مشيًا.. وحيدًا في الشّارع يستمع لصدى خطواته. في إعياء تامّ. كان النّور المنبعث من أحد أعمدة المصابيح يسقط على جسده باهتًا. كان شكله وسط الظّلام يوحي بالغموض والغرابة. كان موزّع النّفَس كاسف البال وقد ارتخت كتفاه إلى الأمام. انهار كلّ ما كان يؤمن به.

وصل إلى مدخل العمارة ثمّ ارتقى السلم نحو شقّته. بحث في جيبه عن المفتاح، وأثناء ذلك وتحت ضوء المصباح المنبعث من الطّابق الأعلى رأى في علبة البريد رسالة موجّهة باسمه، التقطها ثمّ دخل إلى منزله. لم تكن تحمل اسم المرسل، ممّا جعله يستغرب الأمر ويهمّ بفتحها مباشرة. كانت عبارة عن ورقة مطويّة ففضّها وسرى بصره سريعًا على مضمونها. تخشّب جسده بالكامل وانتابه رعب شديد. ألقى حوله نظرة متفحّصة ثمّ اتّكأ على حافّة الطّاولة كردّ فعل لانصدامه لما ورد في الرّسالة.

أحسّ بارتعاش في ركبتيه وهو يقلّب الرّسالة بين يديه. وأعاد قراءتها للمرّة الثّانية بصوت مرتفع وكأنّه يريد التأكّد بسمعه أيضًا.

أعلم أنّك ستذهل عند إتمام هذه الرّسالة، لست مجنونًا كما ستعتقد. هناك حدّ فاصل بين الجنون والعبقريّة. يمكنك اعتبار هذه الرّسالة كعربون ثقة متبادلة.

أمّا بعد فإنّي أعرب لك عن أسفي الشّديد لأنّني خيّبت أملك في الوصول إليّ. لا أقصد الإساءة ولكن لابدّ من القيام بالمهمّة. إهراق الدّماء والقضاء على الأحياء ليس أمرًا ممتعًا كما تتوقّع. تخيّل كلّ تلك الفوضى الّتي عليك تنظيفها، ولكن لابدّ من العمل بقول الشاعر:

وفي الشَّرِّ نجاةٌ حينَ

لا يُنجيكَ إحسانُ

اعذرني عن هذه القساوة. ماذا تتوقّع من رجل مسيّر وليس بمخيّر. أنا أؤدّي عملي كما يؤدّيه أيّ شخص شريف في هذا الوطن. خذ على سبيل المثال خليل لم يتألّم كما تألّم يوسف! كنت

رحيما معه بإعطائه مخدّرا للتّقليل من آلامه. أمّا يوسف فهو بدايـــة لوحة لم تكتمل بعد.

أبقِ هذه الرّسالة معك حتّى أقوم ببعض العمـــل، ثمّ ســـلّمها لرجال الشّرطة، فسكّيني حادة، ممّا يجعلني أرغب في العمل حالاً لو واتتني الفرصة.

لم يكد يصدّق ما قرأت عيناه وهو يقلّب الرّسالة بين يديه علّها تحمل أثرا ما. ولكنّه ازداد حيرة مع مرور الوقت. فقد استعمل هـــذا الشّخص الطّابعة لتحرير الرّسالة. وضعها جانبًـــا وأخـــذ يفكّـــر في الشّخص الّذي أرسل هذه الرّسالة

«ترى من يكون صاحب هذه الرّسالة؟! وكيـــف وصـــلت؟! ولماذا أرسلت إليه من بين كلّ النّاس؟!»

بدأت هذه الأسئلة تطرح نفسها بإلحاح شديد. ولكنّـــه كـــان مرهقًا عاجزًا عن التّفكير بشكل منطقيّ. استولى عليه القلق وطـــار النّعاس من عينيه. كان الأرق آخر شيء يتوقّعه في هذه اللّيلة.

-02-

وصل إلى مقر الشّرطة باكرا هذا الصّباح. تصفح الجريدة الإلكترونيّة في مكتبه ثمّ اطلع على رسائل الإيميل. كانت اللّيلة الماضية حافلة بالأحداث. أخذ يستوعب ببطء ما جرى. تلك الصور الّتي رآها على صفحة الفايسبوك، ثمّ خليل وهو يرقد جثّة هامدة. فجأة قطع حبل أفكاره صوت أتى من داخل الغرفة.

"صباح الخير، أتيت باكرا اليوم؟"

كان بدر الدّين يقف وسط الغرفة، وضع أغراضًا على سطح المكتب وتهالك بجسمه المكتنز على مقعده.

" لم أستطع النّوم، كرهت المكوث في البيت"

"هذا واضح، تبدو مرهقًا"

مسح أحمد وجهه بحركة من كفّه، ثمّ زفر هواءًا ساخنًا من منخريه.

"لدينا اجتماع على السّاعة التّاسعة، هل أبلغت بالأمر؟"

"حقًّا؟!"

غطست قاعة الاجتماعات في أشعّة الشّمس الذّهبيّة، وبدأت تستعدّ لاجتماع جديد. كان فتحي متواجدًا هناك رفقة حمزة بوبكر، واكتمل الحضور عندما دخل بن ذهيبة القاعة يتقدّمه صويلح مهري. عمّ الهدوء فجأة. انتصب بن ذهيبة أمام القاعة وشدّ قامته وهو

يتفرّس في الوجوه. التفت أحمد حوله وبحث عن كهينة ولكنّها لم تكن حاضرة هناك.

"وقعت الأمس عمليّة قتل من قِبَلِ شخص لا يزال مجهولا. الضّحيّة مدير الخزينة العموميّة وصهر يوسف قدادرة"

توقّف عند بن ذهيبة هذه النّقطة ليجذب اهتمام الجالسين ثمّ أضاف:

"يبدو أنّنا في موقف لا نحسد عليه، علينا تكثيف الجهود إن أردنا الخروج من هذه الورطة"

تحرّك خطوة إلى الأمام ثمّ أطرق خلالها كمن يوشك على اتّخاذ قرار مهمّ:

"لابدّ من تغييرخطّتنا والعمل بجهد أكبر، لذلك سأستمع لاقتراح كلّ واحد منكم"

استطالت رقبة فتحي وبدأ يتكلّم:

"تعقّبنا حسابات يوسف وخليل البنكية، واكتشفنا أنّ كليهما قام بتحويلاتٍ معتبرةٍ خلال السّنتين الماضيتين..."

"هل كانا يتلقّيان رُشًى من أحد؟" قاطعه بن ذهيبة

"مصدرها لا يزال مجهولا، ولكن الشّيء المثير للاهتمام، هو أنّ كليهما قام بسحب كلّ الأموال قبل مقتله ببضعة أيّام فقط".

كان ذهن أحمد حاضرًا، ولكنّه لم يمتنع عن التّفكير في كهينة وعن سبب غيابها.

"ربّما كانا يخطّطان لشيء ما فعلم القاتل بالمبلغ الطّائل الّذي بحوزتهما" أضاف حمزة

"أو أنّهما كانا خائفين من الشّيء نفسه" نطق أحمد أخيرًا

ولفت انتباه الحاضرين، ليس بأهمّيّة ما يقول، وإنّما بسبب بحّـــة في صوته.

تنحنح ثلاث مرّات قبل أن يعيد كلامه:

"هناك دافع خفيّ جعل من كليهما يقرّر الهروب مع كـــلّ مـــا يملكه من أموال".

"إذا افترضنا أنّهما تحت ضغط ما فلماذا لا يتّصلان بالشّرطة، ثمّ يحتفظا بما يملكان من أموال؟!"

كان في صوت فتحي نبرة تَحَدٍّ.

"لن يقدرا على ذلك. لأنّ اختيارهم الهروب يؤكّد تورّطهمـــا في أمر خطير، ممّا يجعل اللّجوء إلى الشّرطة توريطا لهمـــا في حـــدّ ذاته"

"فِيمَ هُمَا متورّطان إذن؟" سأل بن ذهيبة بحذر.

"هذا ما أودّ الوصول إليه"

في تلك اللّحظة ظهرت كهينة فجأة عند مدخل القاعة. وبدت جدّ مرتبكة وهي تتخطّى أحمد نحو مقعد شاغر. وصل شذى عطرها إلى أنفه قويًّا. انتعش من جديد. عاد إلى أحمد شـــعوره بالاطمئنـــان لدى رؤيتها، ولكن ظهورها لم يمرّ مرور الكرام.

"صباح الخير آنسة كهينة" تكلّم بن ذهيبة بنبرة استهزاء، ثمّ نظر إلى ساعته.

"نحن على وشك الانتهاء" استأنف بن ذهيبة عمله بتكليف كلّ فرد بمهامّه.

كان فتحي على موعد مع زوجة يوسف للتّحقيق معها حـــول مقتل أخيها. أمّا الطّبيب مهري فقام بتقديم تقرير مفصّل عن حالـــة

الجثّة، وأمر بن ذهيبة بدر الدّين بملء إحدى الاستمارات وإرسال التّقرير إلى وكيل الجمهوريّة.

نهض أحمد من مكانه وشعر بتوعّك في كامل أنحاء جسده، تثاءب ثمّ اتّجه إلى مكتب كهينة. دقّ الباب برفق وتقدّم إلى وسط الغرفة. كانت تبدو أكثر جمالاً وهي تحت تأثير الغضب.

"صباح الخير"

"صباح الخير" كانت عبارتها تحمل نوعًا من الحزن، ورأى اضطرابًا في عينيها

"كيف حالك؟"

"بتّ اللّيلة في المستشفى، وتركت أبي وحيدًا هناك، لآتي هنا وأتلقّى توبيخًا من شخص لا يفقه معنى اللّباقة".

"ما الّذي حدث له، هل به علّة؟"

"أبي مدمن على النّيكوتين لذلك قال لي الأطبّاء أنّه سرطان المريء، حالته تستدعي القلق"

تشاغلت بمداعبة خصلات من شعرها تعبيرًا عن توتّرها. ورأى أحمد أن يخفف عنها:

"لا تقلقي سيكون بخير، أعرف أشخاصًا عانوا الأمر نفسَه، ولكنّهم سرعان ما تماثلوا للشفاء بعد تتبّع نصائح الطّبيب".

لم يبدُ لحديثه أيُّ تأثير عليها وهَمّ بالكلام لولا أن قاطعته قائلة:

"هل صحيح أنّ خليل هو صهر يوسف قدادرة؟"

"نعم"

"إذن لاشكّ من وجود رابط بين الجريمتين"

"هذا ما أعتقده أيضا"

"وهل توصّلت إلى شيء ما؟"

نظر إليها صامتًا ثمّ أخرج من جيبه ورقة مطويّة.

"اقرئيها!"

بدأت في قراءة الرّسالة وقد تجلّت الدّهشة في ملامحها. نظرت صوبَ أحمد مستغربة.

"من أين أتيت بهذه الرّسالة؟!"

"أرسلها شخصٌ مجهول يدّعي أنّه القاتل"

"ولماذا يرسلها إليك ويُعرّض نفسه للخطر؟!"

"قد يكون شخصًا مجنونًا أراد لفت الانتباه"

"هل اطّلع عليها أحد غيرنا؟"

"لا، أنت فقط، رأيتُ أن أشاور في الأمر"

تفقّدتها بين يديها لوهلة، ثمّ طوتها مجدّدًا وحشرتها في حقيبة اليد.

"اتْرُكْهَا معي سأرى ما يمكنني فعله!"

"شكرًا.. هناك أمرٌ آخر لم أذكره لكِ بعد"

تفرّست في ملامحه لعلّها تطّلع على سرّ آخر.

"وجدتُ علاقة تربط بين القضيّتين، إنها امرأة وتُدعى زهيّة برّاشد، سكرتيرة يوسف وخليلة صهره خليل"

"زهيّة برّاشد الّتي سألتَني عن عنوانها من قبل؟"

"نعم"

ارتبك أحمد قليلا وهو يقول العبارة الأخيرة.

"قمتُ بزيارتها من قبل، واكتشفت ذلك من خلال متابعتها على صفحة الفايسبوك، وممّا زاد من سوء ظنّي أنّ أحد الشّهود رآها

تغادر شقّة خليل قبل مقتله بساعات قليلة"

"ولماذا لم تتكلّم من قبل، على الأقلّ لمنع الجريمة الثّانية؟!"

كان في نبرتها نوع من المعاتبة.

"لم أكن أظنّ أنّ لها يدًا في الأمر، ممّا جعلني أقصيها من دائرة المشتبهين بهم"

"وماذا تريد أن تفعل الآن؟"

شابكت بين ذراعيها فوق صدرها ونظرت إليه في اهتمام.

"نقوم برصد تحرّكاتها دون أن نجعلها تحسّ بذلك، كما سأعهد إليك بمراقبة مكالماتها الهاتفيّة وجميع حساباتها البنكيّة".

غمره ارتياح عميق وهو يخفّف عن كاهله أعباء الكتمان. فقد رأى في كهينة سندًا قويًّا يعتمد عليه في هذه المحنة. ممّا سيتيح له التّفرّغ لمهامّ أخرى.

-03-

هبط اللّيل ببطء وتسلّلت الأضواء المنبعثة من الأعمـــدة عـــبر الشّارع الضّيّق. انطلق صوت المؤذّن مدويًّا في السّماء.

"لا إله إلا الله".

كانت الحركة في بابا علي بطيئة تخلو من الهواء. مشى الهـــويني في مسلك متعرّج، تاركًا سيّارته على بعد أمتار. في تلك الأثناء شعر بألم فظيع داخل جمجمته وكأنّ مطرقة عنيفة تدقّ النّصف الأيسر من جبهته.

نظر أحمد إلى الورقة الّتي أخذها من كهينة قبل أيّام. رأى صوَرًا لأشخاص متبوعين قضائيًّا، راجع القائمة بدقّة ولكنّهـــا لم تســاعده كثيرا في تحديد هدفه، في تلك الأثناء هبّت رياح خفيفة جرت معها العلب الفارغة والأوراق المبعثرة على الطّريق. داعبت نسمة رقيقـــة عروق جبهته النّابضة بالألم فأحسّ بارتياح طفيف.

طلب هذا الصّباح مذكّرة تفتيش من مركز الشّـــرطة فـــأوعز إلى بن ذهيبة هذا الأمر لتسهيل الإجراءات. ولكن هذا الأخير رفض ذلك وطلب منه التّريُّث وعدم الاندفاع نحو المجهول. حثّ خطاه نحو ذلك المجهول أين تتواجد المباني العتيقة بتعرّجاتها الضّيّقة. تخطّى زاوية الوالي سيّدي بن عبد الله واخترق ملعب الزّلّيج، وبعد خمس دقـــائق وجد نفسه في طريق مسدود تتفرّع على جانبيـــه أبـــواب الأبنيـــة

المتزاحمة، وكان ضيّقا ومتعرّجا، يخيّل إلى النّاظر أنّه يفضي إلى ممـــرّ آخر، ولكنّه في الحقيقة ينتهي ببنايات متشعّبة ومتداخلة فيما بينـــها. انتبه على إثرها إلى مسلك ضيّق في الزّاوية على يساره. تقدّم بضـــع خطوات حذرة إلى الأمام. لمح في النّهاية الأخرى هـــيكلا يقبـــع في الظّلام الدّامس. تفحّص المكان حوله ثمّ تقدّم ببطء نحو ذلك الهيكل المعدنيّ. استغرق الأمر منه دقيقة فقط، قبل أن تألف عيناه الظّـــلام. رويدا رويدا بدأ حقل الرّؤية يتّضح أمامه.

أحسّ برجليه تتيبّسان. انبهر أمام المشهد الغريب وغير المتوقّع؛ كانت الرّونو السوداء تقبع هناك كشبح. ويا لها من مصادفة!! تفاعل جسمه مع المفاجأة فأحسّ بنبضه يتسارع.

دوّن رقم تسلسلها على المفكّرة، ثمّ ألقى نظرة خاطفة حولـــه، أحسّ بقدوم شخص ما ولكنّه عاد مرّة أخرى إلى السّيّارة وبدأ يفكّر في طريقة لتفتيشها من الدّاخل. إنّها من النّوع الّذي يسهل فتحـــه، ولن تشكّل له أيّ عائق طالما أنّها ليست مزوّدة بجهاز إنذار يفضحه. عندما بدأ معالجة الباب تناهى إلى سمعه صوت أقدام ثقيلـــة تـــرتطم بالأرضيّة وتخترق غشاء الصّمت الّذي اكتنف الحيّ كلّه. عند زاوية المنعطف لمح ثلاثة أشخاص يدخلون الممرّ في خطوات متعبة، فتوارى خلف السّيّارة مختبئًا. جثَا على ركبتيه وراقبهم بهدوء خلف الهيكـــل المعدنيّ.

عندما أصبحوا على بعد ستّة أمتار تبيّن لـــه وجـــه مـــألوف فاتّسعت عيناه دهشة لدى رؤيته. تقدّم أحدهم بجانب السّيّارة وكان على بعد ثلاثة أمتار. سمع أحمد هسهسة المفاتيح وكأنّها تبحث عـــن القفل الّذي يجب أن يكون قطره أكثر من متر لإيجاده، وأثناء ذلـــك

سقطت عُلاقة المفاتيح من بين يديه على الأرض، استطاع أحمد أن يرى حلقة المفاتيح ملقاة بجانب عجلة السّيّارة، ثمّ شاهد أصابع مضطربة تبحث عن الحلقة عبثا، وبعد جهد غير يسير استطاع أن يلتقطها مرّة أخرى. كانوا في حالة سكر شديدة ممّا جعل أحدهم يربّت على كتف الآخر، مطلقا صيحات طائشة، في موجات صوتيّة بشعة، عرف أحمد صاحب هذا الصّوت.

"يا بغل هل أسقطتَها ثانية؟!..."

"ن... أمّك يا ولد ال..... ألا ترى؟ افتح هذا الباب تاع..."

دار المفتاح في القفل، وسُمع صرير الباب الثّقيل وهو يُفتح. لّما شارفوا على الدّخول تناهى إلى مسامعهم رنين قويّ. في تلك اللّحظة الّتي أعقبت فتح الباب حدث ما لم يكن في الحسبان؛ توقّف الزّمن وكان كلّ شيء يبدو عبثيًّا لا معنى له، حظٌّ سيّء، قدر عابث، سمّها كما تحبّ ولكن الوضع تأزّم وانفلت الأمر من بين يديه حين رنّ هاتفه في جيبه. نزلت قطرة عرق باردة على جبين أحمد وأحرقت عينه اليمنى، دسّ يده في جيبه ليسكت الهاتف اللّعين. كان الاتّصال من المفتّش ولكنّه ضغط الزّر الأحمر لينهي المكالمة. توقّفت خطواتهم فجأة وساد سكون عميق، تَلا ذلك تحرّك الأقدام واقترابها من ناحيته، أحسّ بدنُوّ شخص ما ولكن ظِلال ذلك الشّبح توقّفت فجأة ولم تعد تتحرّك، ثبت الرّجل في مكانه برهة وأحسّ أحمد خلالها بضربات قلبه تزداد قوّة مع مرور الوقت.

خيّل إليه وكأنّ ذلك الظّلّ ولّى مدبرًا على عقبيْه، وبدأت أنفاسه تعود إليه مع ابتعاد الخطر. تنهّد الصّعداء وقد أحسّ أنّه خرج للتّوّ من فم الأسد سالًما. كان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في ورطة العمر.

أطبق السّكون على المكان من جديد وعادت نبضات قلبه إلى حالتها الطبيعيّة وبعد أن تأهّب للوقوف أحسّ بأنفاس مشبعة برائحة الخمر تلامس قذاله، لفّ عنقه، وقبل أن يدور 180 درجة إذا بيَدٍ تلوّح بعصًا في وجهه حالت دون رؤية ملامح ذلك الشّخص، أصابته الضّربة في منطقة الصّداع من رأسه. ارتخت عضلاته فجأة وسقط على الأرض مغمًى عليه ثمّ ساد الظّلام.

كان يقف على شاطئ البحر متأمّلا زرقته الدّاكنة والسّماء الصّافية تتخلّلها بعض السّحب الرّقيقة. غمرته أشعّة الشّمس الدّافئة بإحساس مريح، وملأ صوت البحر أذنيه برنين عجيب. رأى خطّ الأفق وهو يربط بين السّماء والبحر في ذلك المشهد الهادئ. بسط يديه في الهواء وأغمض عينيه. أحسّ بالاطمئنان والهدوء، ثمّ بالحياة وهي تسري بجسده. فتح عينيه مرّة أخرى وتبدّل المشهد فجأة. أظلمت السّماء وأصبح لون البحر حالكًا. نكص على عقبيه مرتعبًا لإحساسه بالخطر. زاد البحر من هوله، فبرزت من الأعماق موجة هائلة، غطت السّماء والأفق وحجبت ضوء الشّمس عن الأرض، وارتفعت حتّى كادت تلامس السّماء. غاصت قدماه في الرّمال وعجز عن الحركة فجأة. أخذ يصرخ بشدّة وعيناه تطلقان الدّموع من دون أن يدري. مالت الموجة كالطّود العظيم، وشكلت ذنَبًا شائلا وكأنّها شيطان ماردٌ يوشك أن ينقضّ عليه، وما زال يصرخ ويصرخ حتّى غمرته المياه، وتحوّلت صرخاته إلى فقاعات.

حاول الصّعود إلى السّطح عبثًا، منازعًا الغرق والموت معًا، تخبّط في العمق حتّى أصبح عاجزًا واستسلم للموت أخيرًا، كانت سكرات الموت عنيفة ومؤلمة، وفي تلك اللّحظة العسيرة شعر بيد

ضخمة تمتدّ نحوه وتنقذه من الموت المحتّم. بدأ يطفو نحو السّطح، والنّور يزداد وضوحا والأمل يكبر شيئا فشيئا...

استيقظ أحمد من حلمه فزعا، وكانت ثيابه مبلّلة ووجهه يقطر بالماء. نظرة ضبابيّة مشوّشة، صوَرٌ تتراقص بحركاتٍ بهلوانيّة من حوله. نظر إلى الظّلّ الّذي كان يقف أمامه بعينين متعبتين. لم يستطع تمييز شيء إلاّ همهمة الرّجل وهو يحمل في إحدى يديه دلوًا بلاستيكيًّا يتقاطر منه الماء على الأرض.

أطلّت من عينيه نظرة مظلمة، وكان ظلّه الثّقيل يعكس مدى ضخامته.

زأَرَ الصّوت بقوّة:

"استيقظ. استيقظ!"

عند ذلك بدأت نظرة أحمد تتّضح شيئًا فشيئًا. دار رأسه في المكان وعاد الألم هذه المرّة أكثر حدة. تخثّر الدّم على صدغه الأيمن وسال على خدّه وصفحة رقبته اليمنى. أطلق صراخا صافرًا وتململ في الأرضيّة الصّلبة بجسده الطّريح. كان لون قميصه ملطّخا ببقع أرجوانيّة من أثر النّزيف.

انكمش الظّلُّ أمامه و اقترب منه وجه دميم. كانت رائحة الشّراب تنبعث مع أنفاسه المخمورة وترتطم بأنف أحمد الّذي كتم رغبة في التّقيّؤ. كان يفصله عن هواري ولد ماريا عشرون سنتيمترا فقط.

"هل أتيت لزيارتنا؟"

تفحّص وجهه بنظرة غاضبة

"هذا من دواعي سرورنا"

لم يكن ثمّة أيُّ انعكاس في عينيه باستثناء صورة وجه أحمد الّتي سكنت بشكل خافت في كلّ واحدة منهما. كوّر قبضة يده وسدّدها نحوه بكلّ قوّته، ارتطم وجه أحمد بالحائط وبدأت الدّماء تنزف من أنفه وفمه بغزارة. زمّ على شفتيه من شدّة الألم وكاد يغيب عن الوعي مرّة أخرى.

"هذا عربون ضيافة فقط، لا تقلق سنكرمك كما يجب".

وقف الرّجل أخيرًا وسدّد نظرة ثاقبة أخيرة ثمّ غادر الحجرة.

بعد مرور خمس وعشرين دقيقة من استيقاظه شعر بأغنية «قناوي» تعزف في رأسه. كان مقيّدا بالأصفاد، شدّت بأنبوب نحاسيّ ثبّت على الجدار. جلس القرفصاء واسند ظهره على الحائط، مصغيًا للألم الّذي يهرس عظامه.

بلغ مسمعه صوت خافت، أرهف السّمع وتراقصت عيناه في الحجرة بحثًا عن مصدر الصّوت. كان المصباح الوحيد في الغرفة يتدلّى من السّقف إلا أن الإضاءة كانت ضعيفة. استطاع أن يرى بوضوح سريرًا في الزّاوية البعيدة للغرفة. كانت نوابضه تصُرّ بين الفينة والأخرى ممّا يعني أّن شخصًا ما يستلقي هناك؟؟؟؟ بجانب السّرير كرسيّ من الخشب بدون ذراعين مبطّن بقطيفة حمراء ممزّقة الجانبين، وبرزت منها حشوات الصّوف، وانبعثت في الجوّ رائحة الخبز المتعفّن وروائح أخرى كريهة. كلّ هذا بدا طبيعيّا، نظرًا لانعدام أيّ فتحات للتّهوية. مكان حقير على جدرانه شقوق بارزة وآثار أصابع ملطّخة بشيء يشبه البراز.

على الجدار الأيمن بجانب الباب منضدة خشبيّة ذات قوائم ثابتة لها أربعة أدراج تكسّرت بعض مقابضها ووضعت فوق سطحها

زجاجتا ويسكي إحداهما مملوءة إلى الثلث والثّانية فارغة. وبجانبهما أربع قنّينات «رادبول» و«باور هورس». بدا وكأنّه قضى ساعات ممدّدا على الأرض. تناهى إلى سمعه ذلك الصّوت الواهن مرّة أخرى، ولكنّه جاء هذه المرّة أكثر وضوحًا، كان السّرير يتّسع لشخصين، مطّ رقبته وقاوم رغبته في الصّراخ. تشنّجت أطرافه وأطلق أنّة من أعماقه كنصف همسة من أحد جانبي فمه المطبق بإحكام. رفع ذقنه نحو الأعلى ليتسنّى له الرّؤية بوضوح. استطاع أن يلمح أصابع بيضاء شاحبة تبرز من خلال حافّة السّرير، واستدلّ من خلال الأظافر الّتي بدأ الطّلاء الأحمر ينجلي عنها في بعض المناطق أنّها امرأة. استغرب من تواجدها في هذا المكان وخاصّة أنّها لم تستيقظ في ظلّ تواجده في نفس الحجرة.

بحث عن طريقة ليتخلّص بها من الأصفاد الّتي بدأت تنغرز في رصغيه وتضيف ألمًا آخرَ إلى آلامه. في مكانٍ ما مِن ذلك البيت، تناهى إلى سمعه هسيس خافت تبيّن لاحقًا أنّها أصوات فرقعة أحجار الدّومينو، تتبعها صيحات استياء وتذمّر.

مكث ردحا من الزّمن على تلك الحالة. وفي إحدى اللّحظات سمع خطوات ثقيلة تقترب من الغرفة. ثبت بصره نحو العتبة مترقّبا ظهوره أحدهم. كان الشّيء الوحيد المتبقّي من الباب هو إطاره الخشبيّ وثلاث مفصّلات صدئة في كلا الجانبين، لذلك كانت الغرفة مفتوحة على الدّوام، وما هي إلاّ حركة جفن واحدة حتّى رأى جسما ضخما يسدّ فتحة الباب الواسعة، واتّضح أنّه الهواري، ولكنّه لم يتقدّم أكثر من ذلك عند سماع صوت صاحبه ينادي من مكان آخر داخل البيت.

"هواري.. أين أنت.. هيا سنبدأ!..".

التفت بحركة آليّة اتجاه الرّواق وبرزت عضلات رقبته المتينة لّما دار وجهه وأجاب بلهجة حادّة:

"لا تبدَأُوا من دوني! انتظروا!..".

التفت مرّة أخرى وتخطّى وسط الغرفة متّجهًا نحو أحمد بخطواتٍ ثابتة. نظر أحمد من مكانه إلى الرّجل فبدا كجبل من العضلات أو كمخلوق خرافيّ له عينان شبيهتان بالكهوف العميقة. وقف أمامه على بعد عشر سنتمترات وارتعش خدّه غضبًا، ولعلّ الخمر زادت من حدّة غضبه وانفعالاته.

ظلّ أحمد صامتًا وهو ينظر إليه من الأسفل، كان يعلم أنّه يريد التّنكيل به نظرًا إلى العداوة القديمة بينهما. قد تتفاقم الأمور إلى الأسوإ وربّما لن يعيش حتّى يبلغ نهار الغد.

"تكلّمْ! لماذا أنت صامت، أنت أصم؟!!"

كان وجهه متصلّبا خاليًا من الحياة، وحدهما عيناه كانتا تنبضان بالحياة.

لم يستطع أحمد أن يكتم ما كان يعتلج داخله على الرّغم من دقّة وضعه الخطير. لقد جعلته تلك النّظرة العنيدة عصبيًّا.

"ماذا تريدني أن أقول؟ ها..!!"

رفسه برجله على كتفه بقوّة وضغط بشدّة، تأوّه من شدّة الألم، أحسّ بكتفه تنخلع من مكانها وهو يستلقي على الأرض ضاكًّا على أسنانه من قوّة التّألّم.

"قل لي «شكرًا» لأنّني أبقيتك حيًّا، هيّا انطق! ما الّذي أتى بك إلى هنا؟"

ضغط أحمد على أسنانه وكافح بقوّة ليصل الهواء إلى رئتيه وقال بصوت مختنق:

"تظن أنّك ستتخلّص منّي بسهولة؟ هكذا تقتلني ثمّ ينتهي الأمر"

كانت نظرته على الرّغم من موقفه الضّعيف تحمل تحدّيًا واضحًا.

انحرفت ملامح الهواري عن ذلك التّعبير القاسي الّذي غطّى وجهه مثل قناع وكانت حدقتاه تحملقان في الرّكام البشريّ. دسّ يده في قعر جيبه واستلّ منها علبة قولواز، أمسك بسيجار بين إبهامه وسبّابته، ثمّ أخذ يقلّبه بين أصابعه ويتملّى النّظر إليه وكأنّه يفكّر في أمر ما.

"أنت بالنّسبة لي لا شيء ولذلك سأمحوك من الوجود ولن يصيبني أيّ مكروه أو تعلم لماذا؟ لأنّ الأمور تغيّرت، أستطيع أن أتنقّل كيفما أشاء وأنقل معي ما أشاء دون أن يتعرّض لي أحد من الدّرك أو الشّرطة، حتّى إنّني لو طلبت منهم نساءهم لما رفضوا ذلك".

قال ذلك ثمّ انفجر ضاحكًا وقد برزت أسنانه الصّفراء تتخلّلها ثقوب سوداء. انخفض بجسمه إلى مستوى أحمد ثمّ أمسك لفافة التّبغ بين أسنانه وأخرج ولاّعة من جيبه، أحرق اللّفافة واحمرّت الشّعلة عند أوّل نفس. دسّ يده في جيبه الآخر وأخرج هاتفًا نقّالا وحافظة بها خمسمائة دينار وبعض القطع المعدنيّة. ثمّ مرّر يده مرّة أخرى في منطقة الخصر وراء الحزام وظهر المسدّس في يده. وضع تلك الأغراض على الأرض ثمّ تطلّع إلى تعابير أحمد والّذي أصبح لون وجهه رماديًّا شاحبًا.

"كنت تراقبني إذن! لو كنت رجلا لقابلتني مباشرة"

تداعى قناع السّخرية وامتقع وجهه وكأنّه يدعوه ليتجرّأ فقط ويخبره بشيء مختلف

«تجرّأ وسترى! أنت تعبث بالأشياء الخطيرة، وتتدخّل فيما لا يعنيك. هه. هيّا! ما الّذي جاء بك إلى هنا؟! أمازلت تلاحقني"! هيّا اهذر!"

التقط المسدّس ووضع فوهته على رأسه. أحسّ ببرودة الماسورة وهي تلمس صدغه الأيسر، مكان الصّداع. ارتدّ المسدّس وعاد ببطء إلى منطقة خصره عندما سمع صوتًا مباغتًا من الجانب الآخر.

"لم أنته معك، سأعود إليك".

استوى واقفًا ثمّ حوّل وجهته نحو السّرير الّذي بدأت نوابضه بالصّرير. انطلق نداء يائس من المرأة المستلقية هناك. بدا أنّها تعاني من خطب ما.

أسند ظهره إلى الجدار ورفع نفسه قليلا معتمدًا على رجليه. تمكّن أخيرًا من رؤية شبح هزيل لامرأة في مقتبل العمر، شاحبة البشرة. قد برزت عظمتا وجنتيها من شدّة الضّمور. مال الهواري عليها وسقط ظلّه الثّقيل على جسمها النّحيف الغارق في الفراش. تحرّكت أصابعه نحو جبهتها ببطء ثمّ انغرست داخل شعرها الأسود الحريريّ. تمكّن أحمد من رؤية ارتعاشها وكأنّها ردّة فعل يائسة ضدّ تحرّشه الوحشيّ. لاحظ أنّ الجزء الأماميّ من مرفقيها يتّشح بظلال داكنة متداخلة من اللّونين الأرجوانيّ والبنّيّ الممتزج بالصّفرة، ولمح ثقبًا مليئًا بدم أسود في منتصف كلّ من الكدمتين. كانت تتصبّب عرقًا وقد التصقت شعيرات من شعرها بجبهتها وصدغيها وكوّنت خطوطا متعرّجة.

لسبب ما ظن أنّه رآها في مكان ما من قبل ولكنّه سرعان ما تجاهل تلك الفكرة بسبب الجوّ المشحون بالتّوتّر والرّعب.

"هل تشعرين بتحسّن الآن عزيزتي؟" ربّت على خدّها وتكلّم برقّة حالمة لا تتناسب مع الموقف. أشاحت برأسها نحو الحائط ثمّ ندت عنها صيحة مكتومة. استطاع أحمد أن يرى المريئ من خلال جيدها يرتفع نحو الأعلى ثمّ ينخفض بصعوبة لازدراء اللّعاب، وندت عنها كلمات متقطّعة وجمل غير مفهومة. التقطت أذنه الجملة الأخيرة.

"أريد دواء... أعطني الدّواء. الدّواء" كانت تتكلّم بمشقّة كبيرة.

"مازال الوقت مبكّرا. كوني مطيعة وستحصلين على ما تريدين!"

ذهبت ابتسامته أدراج الرّياح وزفر الهواء من رئتيه فاتّسع منخراه وتصلّبت ملامح وجهه بنظرة متمعّنة لم يرتح لها أحمد.

"أرجوك... الدّوا..."

استطاعت أن ترفع رأسها هذه المرّة وتنقل نظراتها إلى المنضدة حيث كان هواري متوجّها. غادر الغرفة لمدّة دقيقة وعاد يحمل في يديه كأس ماء تغطّيه قطرات من الماء بفعل الرّطوبة. وضع الكأس فوق المنضدة الخشبيّة. فتح أحد أدراجها ثمّ تناول قرصي دواء من علبة كتب عليها بأحرف إفرنجيّة "nozino" أمسك القرصين بقبضته القويّة وأعاد غلق الدّرج بوركه ثمّ تناول الكأس مرّة أخرى.

رفعت الفتاة نفسها بعناء وحماس على مرفقيها بمساعدة هواري وقوّمت نفسها على السّرير. حشر القرصين في فمها فأحسّت بملوحة أصابعه أطبقت عليهما مباشرة وانزلقا نحو معدتها دون مساعدة الماء.

رأى وجهها مضاءا بالعرق، وشعرها ملتصقا بجبهتها. لها عينان عسليّتان تحفّ بهما أهداب طويلة، وشفتان ممتلئتان تشقّقتا بفعل الجفاف.

"هه... ألن تشربي الماء؟"

سال بعض الماء على ذقنها وبلّل رقبتها وقميصها، ثمّ أبعد الكأس عنها ونظر إليها بإعجاب.

استغلّ أحمد انشغاله مع الفتاة وبدأ معالجة القفل بيديه ولكنّه ازداد ضيقا وبرزت في رسغه أخاديد مبيضّة.

"ما بك؟... هل بدأت... ألم أعطك دواءك... توقّفي عن البكاء هيا!.."

انتابته هستيريا طارئة وانفجر في وجهها صارخًا. قرّب وجهه منها حتّى أصبح على بُعد سنتمترات قليلة فقط. غلبت عليها رائحة أنفاسه الكريهة فأشاحت وجهها عنه في حركة يائسة.

"أنت حقيرة هل تعلميّن لماذا. لأنّك تتصرّفين كمومس، ما إن حصلت على غايتك حتّى أدرت لي وجهك".

وضع يده على وجهها وضغط بقوّة على خدّيها الغائرين ثمّ أداره بقوّة وشعر أحمد بالتّشنّجات على مستوى رقبتها وهي تدور ستّين درجة عكس حركتها الإراديّة.

"قلت لك انظري إليّ عندما أتكلّم تنظرين في عيني مباشرة!".

وجّه لها لطمةً كانت بمثابة لكمة لامرأة بمثل هذا الضُّعف، اختفى رأسها داخل الوسادة المبقّعة باللّعاب والماء المتدفّق من الكأس، شهقت على إثرها وظنّ أحمد أنّه قد قضى عليها بتلك الضّربة. وما لبث أن التفت في غضب إلى ضيفه الآخر.

"إلى ماذا تحدّق أنت، ما بك؟!".

كان وجهه يصطبغ بحمرة غريبة وانحدرت قطرات العرق على خدّيه. زوى ما بين حاجبيه وبرزت العروق من صدغه وكأنّه على وشك الاختناق.

وكما تنحدر الصّخور من قمم الجبال لتحطّم أيّ شيء يعترض سبيلها. انهالت ركلات الهواري على أحمد بدون رحمة، أصابته إحداها في باطن ركبته. فأطلق صفيرا صارخا وسقط على الأرض يتلوّى. ودّ لو يمسكها بكلتا يديه ويبكي من شدّة الألم.

"ألا يروق لك الأمر؟! هاه تكلّم! هيا تكلّم!.. أنت رجل القانون فماذا ستفعل الآن؟!" قال ذلك بأنفاس متسارعة دون أن يتوقّف عن الرّكل.

«سيّداتي سادتي إنّها المباراة الأخيرة في القتال الحرّ. هواري يسدّد ضربات قويّة، هذا المصارع لا يرحم، 120 كلغ للرّكلة ولدينا هنا وابل منها، هل يستطيع أحمد الصّمود أمام هذا الهجوم الشّرس؟!. سيّداتي وسادتي ربّما سيعلن الحكم عن نهاية المباراة قريبا.»

الجمهور يصرخ وراء الحلبة يشتم الحكم. الدّماء تندلق على الأرضيّة. سيداتي وسادتي حسمت المباراة. يبدو أنّه يستسلم أخيرًا. ولكنّ الخصم لا يزال يسدّد ركلاته بجنون، لماذا لا يتوقّف؟! أين أنت أيّها الحكم؟! سيّدي الحكم ما هذا؟! أين أنت؟! لجنة التّحكيم تغضّ الطّرف.

الجمهور يختفي فجأة، ويتلاشى صوت المعلّق كذلك ويبقَى الألم وحده ثمّ ظلمة طارئة، أغمي عليه مرّة أخرى.

-04-

أخذ يستردّ وعيه في ومضات متقطّعة. فتح عينه ببطء وكانت نظرته ضبابيّة. لم يدر كم استغرق في غيبوبته. لم يطرأ أيّ تغيير على الغرفة، هدوء نسبيّ تتخلّله قرقرة أحجار الدّومينو من وراء الجدران. شعر بالملوحة في فمه فبصق على الأرض بصقة اصطبغت باللّون الأحمر. دار لسانه داخل فمه متحسّسا موضع الألم وقد لاحظ تناوب موجات النّور المرسلة من المصباح المعلّق من السّقف. رأى فراشة تحوم حول الضّوء الباهر ناشرة جناحيها في الهواء.

اتّخذ وضعيّة الجلوس من جديد ومكث على تلك الوضعيّة فترة ليلتقط أنفاسه. حفّزه الموقف الخطير على إيجاد حلّ سريع. في لحظات توتّره استولى على انتباهه شيء ما، كان يستلقي على الأرض. نشط خياله فجأة وانتعشت فرصه للنّجاة، فتمدّد بكامل طوله على الأرضيّة الخشنة وانزلقت رجله نحو ماسكة الشّعر. كانت بعيدة نوعا ما ولكنّه استعمل قدمه اليسرى ليصل إليها، وبقي بينه وبينها خمسة سنتمترات فقط. لابدّ أنّ القدر رماها أمامه في تلك اللّحظة. انغرزت الأصفاد في الأخاديد عندما مطّ جسمه بأقصى طوله ولمس حافّة الماسكة فتزحزحت من مكانها وابتعدت أكثر. انكمش مرّة أخرى على نفسه وأنّ من الألم وكأنّه آلة الأكورديون تصدر ألحانا عند انكماشها. نزع فردة الحذاء اليمنى بمساعدة رجله

اليسرى ثمّ أطبق على حافة الحذاء بأصابع قدمه العارية ورفعه ثمّ تمدّد مرّة أخرى موجّها قامته نحو الماسكة وبذل مجهودا جبّارا رغم آلامه لكيلا يفلته من بين أصابعه، ألقى فردة الحذاء على الأرض ثمّ جرّه إليه ولكنّه أخطأ الهدف. شعر وكأنّ أظافر خفيّة نحيلة تضغط على صدغيه. التقط نفسا عميقا ثمّ أعاد الكرّة مرّة أخرى وبتركيز أكبر، هذه المرّة أحسّ وكأن رسغه سينقطع وكانت قطرات العرق تتجمّع على جبهته. وقع الحذاء فوق الماسكة ثمّ بدأ يسحب ببطء وحذر.. وأخيرًا حصل عليها. وفي تلك اللّحظة. صكّ سمعه نعيق الصّياح وتتالت كلمات الشّتم حتّى خيّل إليه أنّ عراكا شديدًا نشب في المكان.

"توقّف... لقد رأيتك، رأيتك أرني ما في يدك، أدر الورقة... هيّا. قلت لك أدر!...." ثمّ سمع صوت تكّسر الزّجاج وانقلاب شيءٍ صلب ربّما يكون طاولة أو منضدة. دوّى فجأة في الحجرات صراخ كهزيم الرّعد زلزل أركان البيت وصمّ الآذان، وحتّى الفتاة النّائمة استيقظت من سباتها. لقد خرجت الأمور عن السّيطرة واحتدم النّزاع. حاول أحمد اغتنام الفرصة بإخفاء الماسكة، ولأنّ إعادة لبس الحذاء بدون استعمال اليدين أصبح أمرا مستحيلا. أصبح الآن بعد حصوله على الماسكة في معضلة أخرى وهي كيفيّة وضع الماسكة بين يديه، وقفزت إلى ذهنه فكرة أرعبته طريقة تنفيذها. رأى الأرضيّة المتّسخة وأديمها المكسوّ ببقع داكنة تراكمت بفعل الإهمال مع مرور الأيّام. لم تتح له خيارات أخرى فوجد نفسه مضطرّا لتنفيذ الفكرة. تردّد بادئ الأمر ثمّ انكفأ بجسمه متّخذا وضعيّة السّجود وقبل القذارة بثغره عدّة مرات، وفي القبلة الرّابعة استطاع أن يحمل الماسكة بين

شفتيه. وجّهها نحو يديه اللتين بدأتا تتخدّران. اختلجت الأصوات الآن وبات البيت يشهد معركة طاحنة. كانت الأواني والأغراض تتساقط كالسّيل العارم محدثة صوت انكسار حادّ. صرخة ثمّ أنّة. صيحة غضب ناريّة ولهاث متّصل. قبض بيده على الماسكة وعقف سلكها عند نهايته ثمّ مررها داخل فتحة القفل. في فترة ماضية من حياته وأثناء مرحلة التّكوين في مركز تدريب الشّرطة تلقّى دروسا حول كيفية فتح مختلف الأقفال، ولم يسبق له من قبل أن جرّب ذلك على أرض الواقع، وقد بدت له تلك الدّروس في ذلك الوقت تافهة. لا مجال لاستعمالها.

ولكنّه الآن يعود إلى الزّمن البعيد ويتذكّر كيف كان ذلك العقيد يشرح آليّة عمل القفل وكيفيّة فتحه دون مفتاح. تذكّر كيف كان يعالج القفل أمامهم بخفّة متناهية وسرعة مدهشة. خربش السّلك داخل القفل وأحسّ بانزلاقة تحدث بالدّاخل، ولكن لم ينفتح بعد، لسعت قطرات العرق عينيه حتّى سالت بالدّموع.

"الهواري.. ستقتله... لا. لا.. هواري...."

دوّت الصّرخات مصحوبة برجاء يائس حتّى أصبح على شكل همسات كأنفاس مبهورة، ثمّ ما لبث أن أطبق السّكون على المكان.

التقط نفَسا عميقا وحاول عدم تضييع المزيد من الوقت. أدخل الماسكة المعقوفة في القفل في محاولة أخرى. حرّكها إلى الأعلى. خربش السّلك داخل القفل، ثمّ حرّكه بشدّة إلى اليمين. سمع طكّة وتوقّفت أنفاسه فجأة. كانت الأصفاد لا تزال تلفّ رسغيه، أغمض عينيه جرّاء خيبة الأمل.

وفجأة أحسّ برسغه الأيمن يتحرّر. تجلّت نظرة الاندهاش وهو ينظر إلى الأصفاد.. لا يكاد يصدّق عينيه أنّه قد نجح. نعم نجح أخيرًا وتحرّرت يداه. نهض من مكانه بعناء مستندًا بظهره وكوعيه على الحائط، طرطقت مفاصله الصّدئة وكان جسمه يغنّي أوبيرا حزينة من الألم.

لأوّل مرّة يشاهد الفتاة في صورة كاملة، كانت كنجم لامع فقد بريقه. اصطبغت شفتاها بزرقة خفيفة. كانت ترتدي خرقة بالية قد امتلأت ببقع في أماكن مختلفة. لاحظ كدمات على ساقيها العاريتين. كان مظهرها يبعث على القشعريرة والحزن في آن واحد.

اتّجه نحو المنضدة.. تفقّدها فلم يجد شيئا ذا أهمّيّة كانت هناك بعض الأكياس البلاستيكيّة محشوّة بحبوب الإكتازيا والكوكايين. فتح الدّرج الأوّل وكان يحتوي على أقراص البانادول والبيتاديل وعلب النّوزينو الفارغة وبعض الأقراص المساعدة على النّوم. أعاده إلى مكانه بهدوء. فتح الدّرج الثّاني. لاشيء سوى أوقية ذكريّة وبعض السّكّر المندلق لم يعرف كيف وصل إلى هذا المكان. وأقراص مبعثرة مختلفة الحجم واللّون. أعاده إلى مكانه. الدّرج الثالث له مقبض في وضعيّة حرجة.. جرّة بسيطة وينخلع من مكانه. سحبه ببطء وإشفاق ولكنّه انكسر في يده ومن حسن حظّه لم يهو على الأرض. وإلاّ أصدر جلبة هو في غنى عنها تمامًا.

وضع المقبض بجانب قوارير الويسكي ثمّ شدّ أعصاب أصابعه ومرّرها على حافتي الدّرج الجانبيّين وقام بجذبه بقوّة. وفتح الدّرج فوجد شيئا يستحقّ أن يسحب من أجله هواءًا منعشًا لرئتيه وأعصابه

المحترقة. كان هناك مجموعة من الهواتف النّقّالة ذات طراز قديم. لابدّ أنها تستعمل في عمليّات التّهريب والمتاجرة بالمخدّرات.

تناول هاتفا نوكيا موديل 6310. انتبه في لحظة ما إلى وقع خطوات تعبر الحجرة وتتقدّم بثبات في الرّواق. كان اندفاع الأدينالين في أطرافه وقلبه مؤلمًا. توقّف لحظة ينتظر ظهور ذلك الشّخص في أيّة لحظة، ودقّ قلبه بعنف وتأهّب لمجابهة مصيره المحتّم، ولكن تلك الخطوات تمهّلت واستقرّت لتعود أدراجها.

اضطرب بشدّة حتّى إنّه لم يستطع تركيز انتباهه لإيجاد زرّ التّشغيل. استمع إلى الخطوات في الممرّ وأدرك في تلك اللّحظة أنّ عليه أن يقوم بشيءٍ مَا. كانت الخطوات باتّجاه الغرفة. بسرعة أعاد الدّرج إلى مكانه ولكنّه علق في مكانه وبقي جزء صغير بارز من المنضدة.

سبع ثوان...

خمس ثوان...

ثانيتان...

ولكن الخطوات لم تتوقّف بل واصلت طريقها نحو نهاية الرّواق، أين سمع صوت ارتطام الباب بالإطار. عاد إليه هدوءه مؤقّتا. اغتنم الفرصة ليجرّب الهاتف. أصدر رنينا مكتوما وهو يشتغل فسدّ منافذ الصّوت براحة يده. ضغط على الأرقام بأصابع مرتعشة وتردّد في آخر رقمين. كان محتارا بين 86 أو 68 فجرّب الاحتمال الأوّل.

"إنّ رصيد حسابكم غير كا....." كلّمه الهاتف بصوت أنثويّ هادئ ورزين. حضّته غريزة البقاء على المقاومة ومن حسن حظّه أنّ متعاملي جيزي لديهم خاصّية الرّسائل المجّانيّة. ضغط على الرّقم 720

انتظر ستّ ثوانٍ ثمّ ضغط على الرّقم 1. خمس ثـــوانٍ أخـــرى ورأى تعليمة توجبه بإدخال رقم المرسل إليه. كتب الرّقم بالاحتمال الأوّل. أعاد الكرّة مّرة أخرى بالرّقم الثّاني ليدحض شكّه بالكامل.

هبطت درجة الحرارة نسبيًّا في الغرفة وكان السّكون مخيّمـــا في الخارج. خمّنت السّاعة البيولوجية بداخله أنّ الوقت الآن حوالي الثالثة صباحا. فكّر في جميع الاحتمالات. قد يكون الرّقمان كلاهما خاطئًا عندها لا أمل في وصول الرّسالة. ولكن حتّى وإن كـــان أحـــدهما صحيحًا، فاحتمال قراءتها ضئيل. لأنّه بكلّ بساطة نائم. قـــد يقـــرأ الرّسالة ولن يعيرها أدنى اهتمام فالأرقام المجهولة غالبا ما تلاقي تجاهلا من قبل الأشخاص. وخاصّة إذا تعلّق الأمر برسالة مجّانيّة في عزّ اللّيل. إذ لا يجوز لرجل متزوّج مثل بدر الدّين أن يردّ على رســـالة مجّانيّـــة قصيرة بمكالمة وهو في السّرير بجانب زوجته. كـــلّ هـــذه الأفكـــار تزاحمت في رأسه النّابض بالألم وبقي احتمال أخير رأى أنّه مســـتبعد تمامًا، يلوذ نحو الباب الخارجيّ وإن حالفه الحظّ ووجده مفتوحا فـــرّ هاربًا ولكن فكرة ترك الفتاة وحيدة والفرار جعلته يبـــدو كجبـــان، وأشفق من أن يندم على الموقف لاحقًا طوال حياتـــه. لـــذلك فتـــر حماسه للفكرة، ولأنّه أيضًا قد يجد الباب موصدًا بالقفل وعند محاولة فتحه سيصدر صريرًا يلفت الانتباه.

-05-

"بدر الدّين.. بدر الدّين.. استيقظ!"

رفع جفنيه المثقلين بالنّعاس وأطلق أنّة في شبه غيبوبة اعتراضًا على إيقاظه من نومه اللّذيذ، لم يرد لشيء أن يزعجه في تلك اللّحظة، أطبق جفنيه وغاص مرّة أخرى في السّكينة الّتي لم تدم كثيرًا. عاوده ذلك الصّوت مرّة أخرى وبشيء من الحدّة.

"بدر الدّين.. بدر الدّين. ألا تسمع، قلت لك انهض!"

كان يستلقي على بطنه، يمدّد أطرافه على مساحة السّرير ويضع رأسه المتعب على وسادة تكسوها بقع لعاب حديثة، آخرها تلك الّتي انتشرت حول خدّه الملتصق بالوسادة، كان فمه مفتوحا تنبعث منه رائحة مقرفة. بذل جهدًا جبّارا لكي يفتح عينيه ويستدير ناحية زوجته، الّتي جلست القرفصاء على السّرير بجانبه وتركت الهاتف يتأرجح بين إبهامها وسبّابتها وكأنّه إنذار عن سخطها. قرأ في عينيها نظرة تنمّ عن استعدادها للانقضاض عليه بشراسة. التفت إلى المنبّه على المنضدة ليتأكّد من أنّ الوقت لا يزال مبكّرًا. قرأ الأرقام الحمراء على السّاعة الإلكترونيّة والّتي أشارت إلى الثّانية والنّصف صباحا. فرك عينه اليسرى ومسح بظاهر كفّه محيط فمه من بقايا اللّعاب. سدّدت نحوه نظرة شزراء كانت كفيلة بطرد آخر أثر للنّوم. قوّم نفسه في مكانه ثمّ جلس على السّرير وأخذ يدعو الله في سرّه

ألاّ تكون قد اّطلعت على رسائله. نظّف حنجرته وقال بصوت خشن:

"ما بك. هيّا تكلّمي مالك؟"

انتظر الجواب بفارغ الصّبر وكانت تودّ قول شيء وأخذت تحرّك الهاتف وتردّد بصرها بين زوجها تارة والهاتف طورًا.

"وصلتك رسالة قصيرة على هاتفك منذ قليل، رقم جديد كالعادة"

ظهرت دهشة مصطنعة على ملامحه ليداري بها ارتباكه. عرف أنّه قد وقع في الحفرة.

"حسنا أعطني الهاتف لأقرأ الرّسالة!"

مدّ يده نحوها ولكنّها أبعدت عنه الهاتف وارتدّت يده فارغةً، هرته بحدّة وصعدت نظرها فيه حتّى أحسّ بفورة الغضب تتأجّج داخل رأسها الصّغير. رنّ صوتها في الحجرة وكأنّها ضابط يستجوب سارقا لا يريد الاعتراف بسرقته:

"لا.. لا. تريد أن تختلق عذرًا ما، هذه المرّة سنتفاهم مليح".

"لله درّك!، إهدئي، اخفضي صوتك ستوقظين الأطفال!".

كان يفكّر في طريقة ليهدّئَ بها زوجته الثّائرة ولكنّها هزّت كتفيها استهانة بسخافة قوله وقطّبت حاجبيها بشدّة، كان الجوّ مكهربًا فوق السّرير، وعليه التّفكير في حلّ سريع. تضرّع إلى الله في سرّه ألاّ تكون الرّسالة من إحدى عشيقاته.

"حسنا، إذا أردت وجع الرّأس فأنا أرغب في النّوم"

وتظاهر بالغضب ثمّ انزلق على ظهره واستدار إلى الجهة الأخرى

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة عندما تأكّد ظنّه وسمعها تقول:

"حسنًا من يقوم بإرسال رسالة على الثّانية والنّصف صباحًا؟! لا تقل لي زميلتي في العمل! أريد أن أعرف الحقيقة"

نعم لقد نجحت خطّته أخيرًا ولم يقع في الفخّ الّذي نصبته له رغم ارتباكه في البداية. وخزته في ظهره بالهاتف فاستدار وجلس بجانبها الأربُعَاء واستلم الهاتف من بين يديها. أضاء الشّاشة وعرض الرّسالة وقرأها بارتياح، كانت عبارة عن رسالة نمطيّة مجّانيّة "اتّصل بي" ندت عنه ضحكة عصبيّة قصيرة عندما رأى رقما يجهله تمامًا.

"هل أتّصل بالرّقم لتتأكّدي من بهتانك؟"

كان يعلم في قرارة نفسه أنّه يخاطر وربّما تكون بالفعل امرأة ما والحظّ هو الّذي سيكون فاصلا في علاقته خلال الثّواني القليلة المقبلة.

رنّ الهاتف بقوّة وملأ الغرفة الهادئة بعد أن شغل مكبّر الصّوت. وخزها شعور بالذّنب وهي تستمع إلى الجانب الآخر للمكالمة، نظر إليها بعينين برّاقتين وأثبت صوت الرّجل المضطرب من وراء الخطّ أن بدر الدّين بريء من الاتّهام. وفجأة ارتسمت الجدّيّة على وجهه ونسيَ زوجته تمامًا. قفز من السّرير إلى الأرض حافيَ القدمين.

"نعم أنا.. ما الأمر؟.. ولكن أين أنت؟.. ارفع صوتك قليلا... نعم.. نعم."

كانت تعابير وجهه تتغضّن مع مرور كلّ ثانية.

"من هؤلاء؟... ولكن أين بالضّبط؟... ماذا قلت لي؟... سيّارتك هناك؟! أين؟.. أحمد!! أحمد.!!"

انقطعت المكالمة وهرع بدر الدّين نحو خزانة الملابس. لعن الجورب المقلوب نزعه وأعاد ارتداءَه من جديد. وعند وصوله إلى باب مسكنه انتبه إلى سحّابة سرواله فأغلقها وتوجّه نحو سيّارته مسرعًا.

انطلق بسرعة في الطّريق، دون أن يقوم بتسخين المحرّك. فور خروجه أجرى اتّصالا طارئًا بمركز الشّرطة. أثناء طريقه إلى المخفر.

دوّت صافرات الشّرطة واندفعت السّيّارات مسرعة عبر الطّريق. كان الجميع على أهبة الاستعداد لاقتحام الحيّ. سيطر القلق على بن ذهيبة، الّذي تذمّر أوّل الأمر عند اتّصالهم به في عز اللّيل. ولكنّه الآن لم يعد قادرًا على احتمال الضغط، فقرّر ترك عجلة القيادة لشرطيّ آخر. تفحّص ساعته وكانت تشير إلى الثالثة والرّبع صباحا. التفت إلى السائق وقال:

"هل تعرف باب علي جيّدا؟"

"نعم سيّدي. كلّ شبر فيها"

"جيّد. إذن اضغط على الدّوّاسات بأقصى طاقتك، الطّريق فارغة، يجب أن نصل في الوقت المناسب"

-06-

أحسّ أحمد بوجوب إيجاد حلّ لمشكلته. عاد إلى وضعيّته الأولى مستندًا على الحائط مفكّرا، وعاود النّوم الفتاة و لم تكن تعـــي مـــا يدور حولها وكأنّ ذلك لا يعنيها في شيء. فجأة تذكّر ذلك المنظـــر الّذي رأى فيه شاباّ يساق إلى الحبس مقيّدا بالأصفاد، وطفـــت إلى السّطح ذكرياته حول الكلمات الّتي سمعها عن اختطـــاف شـــابّة في مثل سنّ هذه الفتاة. أعاد النّظر إليها وكأنّه يراها لأوّل مرّة. تـــيقّن أنّ الصّورة الّتي رآها لأكثر من مرّة في قائمة المفقودين ترجع لهـــذه الفتاة.

تخشّب جسده عندما سمع خطوات ثقيلـــة تشـــقّ طريقهـــا في الرّواق. لم يملك وقتا للتفكير وأصبح في ورطة حقيقيّة.

أرخى يديه وسقط الهاتف على الأرض وانفصلت عنه البطاريّة والغطاء. رأى الهواري يقف عند مدخل الغرفة بوجه ينبض رعبًـــا. تحوّل جبينه إلى اللّون الأسود، وكان منخراه يتوسّـــعان ويضـــيقان بشكل منتظم، ورأى بقعًا من الدّماء على قميصه وبنطاله الّذي تغيّر لونه إلى الأرجوانيّ.

تبادلا نظرة طويلة تنمّ عن التّحدي وعندما همّ أحمد بـــالوقوف لاحظ أنّه يحمل في قبضة يده سكينا حادّة، لمع نصلها تحـــت ضـــوء المصباح. انقضّ عليه الرّجل بحركة خفيفة ولوّح بالسّكّين في وجهـــه

ولكنّ أحمد تجنّب الضّربة بأعجوبة. سمع أحد أضلعه تنحـــرف عـــن موضعها إثر حركته المفاجئة. سرت في جســـمه موجـــة كهربائيّـــة صاعقة جعلته ينتبه لإصابة ركبته اليسرى. تراجع خطوتين إلى الوراء متّخذا وضعيّة الدّفاع. لهث أحمد بشدّة وتدفق الأدرينالين بقـــوّة في عروقه وغابت موجة الألم تحت طوفان الانفعال. لوّح الرّجل بضربة خادعة قصد بها أن يكشف أحمد عن جسده، وبسرعة البرق قـــذف ثقل يده في ذلك السّكين. بحركة سريعة قفـــز أحمـــد إلى الجانـــب واصطدم جسده بالمنضدة.

لم يسمح له الرّجل بثانية يتمالك فيها توازنه وانقـــضّ عليـــه موجّها النّصل بقبضة حديديّة وفي جزء من الثّانية توقّف النّصـــل في طريقه نحو صدر أحمد على بعد عشرين سنتمترا فقـــط. تشـــابكت الأيادي في الهواء. شدّ على عضلات ساعديه للتّخلّص من السّكّين. ثنى الرّجل ساقه اليمنى وطعنه أسفل عظم التّرقوة. انفجرت شـــرارة الألم وتراخت قبضته على المعصم. تأكّد أنّ مصيره بين يديه فعـــضّ على نواجذه ومال بثقله على جسد الرّجل دافعًا إيّـــاه إلى الحـــائط. سقطت السّكين على الأرض والتحم الرّجلان في قتـــال بالأيـــدي وقبض الرّجل بيدين حديديّتين على رقبته وضغط بوحشـــيّة ليكـــتم أنفاسه فتقهقر أحمد إلى الوراء محاولا التّخلّص من قبضته. اصـــطدم أسفل ظهره بتلك المنضدة فارتجّت في مكانها وهوت القوارير وتنـــاثر الزّجاج على الأرض. كانت أظافره مدفونة في عنقه وأحسّ بـــالهواء ينسدّ في رئتيه، ولّما تمكّن خصمه من عنقه بدأ يـــدخل في غيبوبـــة. ومضات متقطّعة من مشهد عنيف. لا يزال بإمكانه مشاهدة اللّعاب يسيل من فم خصمه وعينيه جاحظتين تكادان تبتلعانه.

بيأس حاول استجماع ما بقي في عروقه من طاقة تخبّطت رجلاه في محاولة لدفع خصمه، ولكنّ عضلاته بدأت تفقد قوّتها مع انقطاع الأوكسجين. كان الأمر حاسمًا عندما تحسّس بيده جسما صلبا فوق المنضدة. مرّت ثوانٍ انقطع فيها نفس أحمد وهو يبذل جهدا جبّارا للتّخلّص من وضعيّته. التقط الزّجاجة ووسدّدها نحوه فتبعثر الزّجاج فوق رأس خصمه. مال مترنّحا إلى الوراء وتفجّرت الدّماء من رأسه. وضع أحمد يده على صدره وسعل بشدّة متأثّرا بفقدان الهواء لمدّة دقيقة. تغلّب على آلامه ووجّه لخصمه المكشوف لكمة قويّة. سقط على إثرها ومال أحمد فوقه وانهال عليه بلكمات قويّة متتابعة. لم ينتبه إلى صراخ الفتاة الّذي دوّى في المكان حتّى غطّى الدّم وجه الرّجل بالكامل وتوقّف عن المقاومة.

وقف أحمد عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تُهرّسُ عظامَه آلام قاسية. ارتمى بجانب خصمه يئزّ من الألم وقد ابتلّ وجهه بالعرق، ساق معصمه إلى جانبه حيث كان الألم مباشرًا وشديدًا. لولا موقفه لظلّ مستلقيًا على الأرض صارخا وباكيًا. ولكنّه تماسك ثمّ نهض بصعوبة بالغة. توجّه نحو الفتاة الّتي انحنت فوق السّرير في وضعيّة جنين. أصبح لون بشرتها رماديّا غريبا. انشقّت ابتسامة على ملامحه -وتألّم جرّاء ذلك -وهو ينظر إليها بإشفاق. أحسّ بالخجل لأنّه يذرف الدّموع في حضورها. مدّ يده إليها وساعدها على النّهوض من السّرير كانت من الوهن والضّعف بحيث بدت كمومياء محنّطة.

منعها من السّقوط عندما وقفت بالكاد على قدميها ولفّ ذراعها حول رقبته ثمّ قادها إلى الرّواق نحو الباب الخارجيّ. لحسن

الحظّ كان الباب مغلقا من الدّاخل فقط، سحب المزلاج من الأسفل وأدار القفل عكس اتّجاه عقارب السّاعة، فتح الباب وأحسّ بهبوب أوّل نسمة رقيقة في ليلة زامتة.

هبطا الدّرج معا وكانت الفتاة تغفو من حين لآخر واضطرّ أحمد للتّوقّف عدّة مرّات قبل أن يواصل طريقه، لم يستطع حملها رغم خفّة وزنها وهو يعرج في مشيته من شدّة الألم. شقّا طريقهما في الأزقّة الضّيّقة. فتح باب سيّارته وأجلس الفتاة على مقعد الرّاكب برفق ثمّ أعاد غلقه وتأكّد من عدم وجود أحد في الجوار. دار حول السّيّارة ثمّ فتح الباب وقبل أن ينزلق إلى الدّاخل سمع صوت محرّك يتموّج مع اقتراب سيّارة على بعد أمتار من الطّريق المتعرّج. وفجأة بزغت أضواء ساطعة، سرعان ما بدأت في الانتشار...

تلاحقت السّيّارت كسرب جراد اكتسح الحيّ بأضوائه الحمراء والزّرقاء سيّارتان ثمّ ثلاثة.... تبدّد الظّلام فجأة تحت وقع الأضواء السّاطعة. وضع يده على عينيه ليحجب عنها الضّوء الباهر وبعد برهة استطاع تمييز ذلك المشهد كاملا. انتشرت سيّارات الشّرطة في المكان ودارت الأضواء الزّرقاء والحمراء في أسطحها وهي تغلق منافذ الحيّ.

كانت ركبته تنبض بقوّة وهصره ألمها الّذي طغى على جميع آلام جسمه. رفع أحمد رأسه عندما شعر بشبح يقف أمامه نظر إليه في عدم اكتراث. حكّ بدر الدّين عثنونه ورمقه بنظرة إشفاق.

"هل أنت بخير؟"

هزّ أحمد رأسه إيجابًا وقد أثر منظره الجديد في نفسيّة بدر الدّين. انتفخ جفناه كالبوندا وكان وجهه مضرّجًا بالدّماء وبقيت آثار

خطوط الأظافر على صفحة رقبته، ولكنّه على الرّغم من دهشته إلاّ أنّه لم يستطع كتمان سروره الطاغي على جميع مشاعره.

"عثرنا على السّيّارة الّتي كنا نبحث عنها."

تفرّس في كدماته لحظات.

"كنت سببا في إنقاذ الفتاة المختطفة و....."

كشّر أحمد من الألم عندما تململ في مقعده.

"هل أنت متأكّد بأنّك بخير؟ أرى أن نأخـــذك إلى المستشـــفى أحمد فإصاباتك تبدو خطيرة".

بدا أحمد وكأنّه لم يسمع كلامه فراح يربّت على ركبته المصابة ويتلوّى في مقعده وودّ لو ينتهي كلّ شيء ويغادر إلى البيت، حيـــث الهدوء والألم يمتزجان معًا دون أن يعكّر صفوهما أحد.

"أين الفتاة؟" تكلّم تحت أسنانه.

"لا تقلق هي تحت رعاية الحماية المدنيّة ستكون بخير، اتّصـــلنا بوالديها وهما في أوج السّعادة، أنت لا تعلم مقدار ما فعلته أحمـــد، أنت بطل"

"شكرًا لك"

كان يصغي لآلام جسمه المحطّم. اقتحم أفراد الشّـــرطة البيـــت واكتشفوا كمّيّة هائلة من القنب الهنديّ، ألفَيْ قرص إكتازيا، أكياس الكوكايين وأسلحة بيضاء، رشّاش كلاشينكوف، ولكنّهم لم يعثروا على المسدّس الّذي استعمل في الجريمة الأولى.

شاهد فرقة البـــي آر إي وهـــي تنقـــل السّـــلاح وتصـــادر الممنوعات ثمّ رأى الحماية المدنيّة تنقل جثّة في كيس جلديّ أســـود. كان البيت خاليا من الأشخاص عندما اقتحامه.

"استغرب وجود جثّة واحدة فطفق يسأل باستغراب:
"أرى أنّ هناك جثّة لشخص واحد فقط، فأين الثّانية؟" رمقه بدر الدّين بنظرة لم تكن أقلّ استغرابًا.
"الثّانية، أنت متأكّد؟"
وضع أحمد يده على جانبه الأيسر وشدّ على أسنانه.
"جدّ متأكّد، وجثّة من هذه الّتي نقلت قبل قليل؟"
"إنّه شخص قصير القامة أبيض البشرة في الخامسة والعشرين الظّاهر أنّه توفّي على إثر طعنات، ألديك فكرة عمّا حدث بالدّاخل؟"
"ماذا؟ ولكن...."
صمت قليلا ليستوعب كلامه. عضّ على نواجذه ليتكلّم:
"الهواري ولد ماريا كان هناك، ولكن الكلب نجا"
"من هو هذا الشّخص، هل كان معهم هناك؟"
"إنّه من كنّا نبحث عنه كلّ هذه المدّة، تلك الرّونو سيّارته والمسدّس لابدّ وأن يكون في حوزته الآن".
تغضّن جبينه لحظة ثمّ عاد يقول وهو يتحسّس موضع الجروح في رقبته.
"أتساءل عن كيفيّة هروبه. تركته صريعا هناك، ظننت...."
في تلك الآونة أقبل بن ذهيبة نحوهما بشاربه المنتفخ، يبدو أنّه أتى ليضع حجر الأساس على العمل المنجز.
"لقد حذّرتك من عدم الخوض في الأمر لوحدك، ولكن سأسامحك هذه المرّة لأنّك قمت بعمل رائع".

اكتفى أحمد بتحريك رأسه إلى الأعلى والأسفل موافقًا على كلامه دون أن ينبس ببنت شفة.

"ستنال ترقية بهذا العمل لذلك أهنئك مجدّدًا، فلقد وجدنا..."

"سنتكلّم عن ذلك لاحقًا، والآن أرجوا أن تسمح لي بالانصراف". اغتاض بن ذهيبة لمقاطعة أحمد لكلامه بهذه الكيفيّة، ولكنّ شكل أحمد المزري جعله يهدّئُ من روعه قليلا.

"إذن لتنصرفْ وخذ قسطا من الرّاحة فإصابتك تبدو خطيرة!"

كان أحمد يعلم أنّه الدّجاجة الّتي تبيض ذهبًا وهو يدرك بغريزته أنّ الواقف أمامه لا يكترث لأمره بتاتًا، وكلّ ما يهمّه هو ملء سيرته الذّاتية بالإنجازات لتقلّد أعلى المناصب، ولو على جثث عناصر الشّرطة.

-07-

تمدّد أحمد على سريره مستغرقا في نوم عميق. شخير. شخير... ثمّ شخير. بقع حديثة على الوسادة تتشكّل بجانب فمه المفتوح وخطوط متعرّجة تحيط ببقع اللّعاب الجافّة. بوسع أيّ فأر في تلك اللحظة أن يدخل فمه الواسع. كان يغطّ في نوم عميق بعدما قضى بقيّة اللّيل مسهّدا بآلامه. اتّخذ جسمه شكلا غريبا فوق السّرير. كان مستلقيًا على ظهره وامتدّت رجله اليسرى فوق السّرير، أمّا الرّجل الأخرى فكانت معقوفة إلى الجانب الآخر، بينما يده اليسرى تموضعت فوق معدته والأخرى رسمت زاوية منفرجة بنفس المنحى الّذي شكّلته الرّجل المعقوفة. بدا وكأنّه قفز من الطّابق السّتين ليرتطم بالأرضيّة ويصبح بهذا الشّكل. كان الهدوء في الغرفة ثقيلا وكان اللّيل في ثلثه الأخير. على الأرضيّة خرقة ملطّخة بالدّم وبعض القطع المتناثرة من القطن الّذي تغيّر لونه من الأبيض إلى البنّيّ بفعل البيتادين والقيح.

فوق المنضدة علبة أقراص صفراء مكتوب عليها دوليبران 500 مغ وقارورة كحول. وبجانبها وضعت قارورة هبتاجيل الّتي تقوم بمفعولها الآن والله وحده يعلم ما يدور في أحلامه. كان يحلم بشراء سيّارة جديدة. وكهينة الّتي تنضمّ إلى سريره، وتبدّت له في سترة حريريّة شفّافة يظهر من خلالها... لا. سأتوقّف فهذا ليس من

شأنكم. ربّما سيحشو مسدّسه «الغلوك» بالرّصاص ويمشي في الشّارع كشخصيّة سوندرياس الهستيريّة. يطلق النّار على أيّ شخص تسوّل له نفسه الوقوفَ أمامه. سيفتح بابا لعينا وينقلع القفل في يده. يا لقوّته!

يمشي في البهو الواسع يسأله شرطيّ الاستقبال عن وجهته فيسدّد له لكمة تطير لها أسنانه في الهواء على طريقة فيلم ماتريكس. ثمّ يتقدم إلى الأمام وقد امتلأ عزما والنّاس تهمس سرًّا على شجاعته وترنو إليه الأعين بإعجاب. الآن أصبح في مكتب المدير وقد برز ساعداه وهو يوجّه لكمات قويّة تتباطأ حركتها كتلك الّتي يعاد عرضها ببطء في مباريات الملاكمة. سقط بالضّربة القاضية وطارت كومة الشّمّة من فمه في الهواء. أصبح رأسه كحبّة طماطم مرميّة على الأرض دهسها رجل عملاق بقدمه. لا يزال هناك باب آخر، يهرع نحوه بثبات ثمّ يرفع رجله إلى الأعلى ويسدّد ضربته القويّة ليطير الباب في الهواء. رأى وجوها ريّانة تحملق فيه باستغراب. ترتدي أربطة عنق وبذلات أنيقة يحفّون حول مائدة مستديرة في انضباط لمحاربة التّقشّف. ضغط زناد المسدّس وطار الرّصاص طائشا في القاعة الفخمة وتساقط القتلى كما يتساقط الجراد بالمبيد. رأى يدا ترتفع من تحت الطّاولة المستديرة وترتفع في حركة يائسة إلى الأعلى تنازع من أجل البقاء

"لا. لا شكرًا لن أنتخب".

ثمّ أطلق الرّصاص. وفي آخر المرحلة الّتي ينبغي للبطل الانتصار فيها، وقبل سماع الجماهير تهتف ممجّدة اسمه، وقبل أن يلوّح لهم بكلّ تواضع.

رأى مقعدا مرصّعا بأربعة نجوم لامعة. من العجيــب أنّ ذلــك الشّخص الّذي كان يجلس فوقه لم يستطع النّهوض من الكرسيّ و لم يبدِ نية في التّزحزح من مكانه رغم أنّ ماســورة المســدّس ســتقبّل مؤخّرته قريبًا

«انهض! انهض من الكرسيّ!»

لم ينبس ببنت شفة و لم تصدر منه أيّة حركة. بقــي جالســا وتساءل أحمد إن كان الكرسيّ والشّخص شيئًا واحدًا، أو أنّ الغراء يمنع مؤخّرته من أن تبرح الكرسيّ! أو الكرسيّ لا يريد لتلك المؤخّرة أن تبرحه! تعجّب أحمد و لم يجد تفسيرا لهذا الأمر.

كان ذلك الشّخص أشبه بالدّمية منه إلى الآدميّة. والآن عليه أن يقضي على العدوّ الأخير. بقي في المسدّس خمس رصاصات. رماهــا كلّها فلم تصب الهدف. ولكنّ الطلقة الأخيرة انحرفت بطريقة عجيبة مكوّنة جيوبًا هوائيّة هائلة في مسارها المنحرف. اخترقت ذلك الرّأس الأصلع في الأخير وأحدثت ثقبًا كبيرًا. كلّ ذلك حــدث بطريقــة سرياليّة متباطئة. من خلال الثّقب برز شعاع سرعان ما بدأ ينتشــر أكثر فأكثر. كان المكان يشتدّ حرارة مع مرور الوقت وفجأة أصبح كلّ شيء ساطعًا. ساطعًا وحارًّا جدًّا.

استيقظ أحمد وأشعّة الشّمس تحرق خدّه وصفحة رقبته اليسرى. أصيب بالإحباط الشّديد عندما ألقى نظرة حوله وعاودتــه ذكريــات حياته البائسة، تمنّى لو انزلق هذا الحلم إلى هذا العالم لتتحقّق العدالــة الإلهيّة وينتصر الخير على الشّرّ. كانت خصاص النّافذة مفتوحة علــى مصراعيْها والسّتارُ محسورًا عنها إلى أحد الجــانبين. كانــت رائحــة البيتاديل والكحول المتدفّقة على الفراش تفوح في المكان.

جلس أحمد على حافّة السّرير يصغي لآلامه مع كلّ حركة كان يقوم بها. بقيَ على وضعيّته تلك بضع دقائق يتحسّس مواقــع الألم في جسده ويسبر مكمنه بين أضلعه. حاول النّهوض من مكانه مســتندًا على المنضدة الّتي بجوار السّرير، وقف على قدميه المتعبــتين وفجــأة استيقظ الألم في ركبته اليسرى ضغط على أسنانه بشدّة وهو ينظر إلى ساعة الحائط والّتي أشارت إلى الحادية عشرة صباحا. كان يعــرج في خطوات بطيئة ليعبر غرفة النّوم نحو غرفة الحمام. فتح الصّنبور ثمّ تجمّع الماء في حفنة بين كفيه كما يفعل عادة ليغسل وجهه من آثار النّعاس. أدرك فجأة أن عينه متورّمة فقام بتبليل إحدى كفّيه ومرّرهــا علــى وجهه بهدوء متجنّبا منطقة الألم. قبل أن يغادر الشّقّة توقّف أمام الباب وانحنَى إلى الأسفل ليلتقط رسالتين كانتا ملقيّتين عند عتبــة البــاب. حبس أنفاسه وهو يفتح الظّرف، نفض الرّسالة وكانت عبــارة عــن فاتورة الكهرباء والغاز، شعر بالدّوران عندما رأى الأرقــام المحســوبة بعناية أسفل الورقة و لم يستطع صبرا على مشــاهدة مــا في الرّســالة الأخرى، فإّن الهموم إذا حلّت بامرئ جاءت تباعًا، وكأنّ بعضها يشدّ عضد البعض ليؤكّد سوء بخته وتدهور أوضاعه الانضباطيّة، حــدّق في الرّقم الثّاني عندما فضّ الرّسالة الثّانية وكانت فاتورة الهــاتف النّقّــال أكبر وقعا على نفسه. وطفق يلعن ويسبّ الموظّف الّذي أرسل هــذه الرّسالة. كانت تلك ضريبة الرّسائل الغراميّة الّتي كان يرسلها مــؤخّرا إلى كهينة. طوّح بالرّسالتين على طاولة المطبخ وغادر الشّــقّة مــوزّعَ النّفس مشتّت البال لا يلوي على شيء.

وقف عند رأس السّلّم ونظر بإشفاق إلى الكــمّ الهائــل مــن الدّرجات الّتي تتطلّب منه ثني ركبته عند كلّ واحدة منــها. كــان

أمامه ستّ وخمسون درجة. فكّر للحظة أن ينكص على عقبيْه ويستريح في البيت طوال اليوم، ولكنّه فكّر في الملل الّذي سيصيبه، وهناك كهينة.. في الحقيقة رأى عدّة أشياء تستحقّ بأن يتحمّل في سبيلها السّتّ والخمسين درجة. هبط السّلّم ببطء واستند على الدّرابزين برفق. استغرق ستّ دقائق كاملة للخروج من مدخل العمارة.

شغّل السّيّارة. انطلق في الطّريق ببطء وبعد خمس دقائق اندمج مع السّيّارات في الطّريق الرّئيسيّ. تمكّن أخيرًا من فتح عينه المتورّمة ولكنّها لا تزال تزعجه كثيرًا وخاصّة عندما يرمش. نظر من خلال الزّجاج إلى الطّريق وكانت السّيّارة تطوي الطّريق طيًّا واحتجّ محرّكها الصّاخب مُصدرًا أزيزا قويًّا كالأفكار الّتي تنازعت في رأسه.

انزلقت المباني خلفه بنفس سرعة السّيّارة كما تمضي الذّكريات بنفس السّرعة الّتي تأتي بها الأحداث، على الرّغم ممّا وصلت إليه القضيّة من تطوّر إلاّ أنّ الحلّ لا يزال مغلقًا، وخاصّة أنّه لم يجد أيّة علاقة منطقيّة تربط الضّحيّة بالهواري. الضّحيّة من الطّبقة الرّاقية والآخر تاجر مخدّرات ومسبوق قضائيّا. لم يبدُ الأمر منطقيًّا كفاية للخروج بنتيجة مُرضية، هناك حلقة مفقودة في القضيّة. كانت السّاعة المنتصبة على قمّة العمود وسط نقطة الدّوران تشير إلى الثّانية عشرة إلاّ عشر دقائق. ازدادت حركة المرور اختناقًا. تجاهل إشارة عدم التّوقّف ونزع حزام الأمان. وأثناء ذلك صدر صوت كالنّعيق من خارج السّيّارة. التفت خلفه فرأى شرطيّا يهرول نحوه وهو يمسك قبعته بإحدى يديه ليمنعها من السّقوط. كان يبدو وكأنّه تلقّف شيئا ثمينًا يستوجب كلّ هذا الحرص والحيويّة الّتي يبديها وهو

يقترب من السّيّارة رغم حرارة جويلية اللاّفحة. فحّ صوته كـــالأفعى وهو يلهث:

"أعطني وثائق السّيّارة!" قال ذلك بصـــفاقة دون مقـــدّمات ثمّ انتصب كالتّمثال يحدّق إلى أحمد من وراء النّافذة بعينين ثاقبتين. كان في سنّ الخامسة والأربعين، يطلّ الغباء من جبهته الضّيّقة والبلاهة من عينيه الباردتين. بدا مضحكا في اللّباس الرّسميّ، والّذي لا يتناسب مع حجمه الضّئيل.

"ما حاجتك للوثَائق؟"

اندهش الشّرطيّ لجرأته في الكلام. فجأة أبرقت عيناه وتكلّـــم بلهجة المعلّم.

"ممنوع التّوقّف في هذا المكان، هناك إشارة تمنع ذلك"

وأشار نحو عمود على حافّة الطّريق.

"لم أجد مكانا شاغرًا يمكنني التّوقّف فيه. زيادة على ذلك لـــن أطيل هنا سأعود بعد قليل".

اربدّ وجه الشّرطيّ وتكلّم بحزم مُظهرًا صرامة لا حدود لها.

"لا سيّدي. أعطني الوثائق حالا! أحرّر لـــك المخالفـــة الّـــتي ارتكبتها ثمّ تنصرف من هنا. إنّه القانون".

«تبًّا للقانون الّذي يطبّقه أمثالك.»

"قانون؟ ماذا تعني بالقانون ومتى بدأت تكترث بتطبيقه؟".

يهملون الأمور الجدّيّة، كالسّرقات والقتل في ضـــوء النّهـــار، وتعدّي المسلّحين على المواطن في عرض الطّريق وعلى مـــرأى مـــن أعينهم. يغضّون أبصارهم أمام جور الظّالمين الحقيقيّين، الّذين يرتدون البذلات الأنيقة ويعيشون في الأرض فسادًا. تراهم يتهلّلون عند رؤيـــة

سائق حافلة يقتات من سياقته وهو يرتكب مخالفة سخيفة. فيلتفّون حوله كالذّئاب ويتلذّذون بمشاهدته وهو يترجّاهم لاسترجاع رخصة السّياقة الّتي تعلّق عليها عائلته كلّ أملها لتقتات منها.

"ما هذه التفاهة؟ ابتعد عن باب السّيّارة حالاً!".

اندهش الشّرطيّ لهذه اللّهجة الحادّة، نزع أحمد النظّارة فظهرت كدمات بشعة حول عينيه كحبّة الباذنجان. غدًا شخصًا مرعبًا بسحنته الأرجوانيّة المتدرّجة إلى الاخضرار.

"أنا شرطيّ أيضًا وقد ارتكبت لتوّك مخالفة إيقاف سير عمليّة التّحقيق الّتي أباشر بها، وأخبرني ما اسمك؟"

تقهقر إلى الخلف ورفع يده نحو صدغه، ملقيًا التّحيّة على زميله في ارتباك واضح.

"آسف. ولكن لا يبدو في مظهرك أنّك تعمل معنا. لم أدرِ أنّك شرطيّ أيضا".

فتح أحمد باب السّيّارة ثمّ ترجّل وقال بتهكّم:

"رافقني إلى المكتب"

"عفوًا سيّدي ولكنّي أراقب حركة المرور لأنّها في فترة الأوج، عذرًا مرّة أخرى".

"حسنا إذن، سأذهب وحدي ولكن سأترك السّيّارة تحت رقابتك".

"أجل. بالتّأكيد إنّها تحت أنظاري لا تقلق أبدا".

ثبّت أحمد خصلات شعره المشعث وهو يعبر مدخل البناية بخطى بطيئة لكيلا يكون عرجه ظاهرًا. حيّى الشّرطيّ الواقف خلف مكتب الاستقبال وتبادلا بعض اللّياقات، ثمّ اجتاز البهو نحو السّلّم

المؤدّي إلى الطّابق الأوّل وصعد ببطء. حفّزت حركته تلك آلام ركبته الّتي أخذت تزداد تدريجيّا مع كلّ درجة يرتقيها. وقرّر في تلك اللّحظة زيارة الطّبيب لاحقًا.

"كيف حال صحّتك أحمد؟ هل تحسّنت قليلا؟".

تكلّم بن ذهيبة وهو يلقِي نظرة متفحّصة على هيئته الزّريّة. نزع أحمد النّظّارة ووضعها على سطح المكتب واكتمل البدر. برزت عينه المتورّمة وبدت كأنّها حبّة باذنجان، نظّف حنجرته ثمّ تكلّم بصوت هادئ:

"الحمد لله. أنا بخير. هل من جديد؟".

"بالمناسبة نشرنا عدّة دوريّات في منطقة باب علي وهي تعمل متخفّية بين عامّة النّاس وأؤكّد لك أنّهم يراقبون كلّ صغيرة وكبيرة".

كان أثناء حديثه يتجنّب النّظر إلى تورّمه الّذي بات مثيرًا للاشمئزاز...

"اكتشفنا بعد البحث في السّجلاّت القضائيّة عن ملفّ بن هملة مختار المدعوّ بالهواري. سجن عدة مرّات بتهم مختلفة في كلّ مرّة."

قال ذلك وهو يفتح درجًا في المكتب. تناول منه ملفًّا ثمّ وضعه على سطح المكتب.

شعر برغبة في الحك فرفع يده نحو وجهه ولكنها توقفت في منتصف الطريق. اكتفى بتحريك أهدابه فقط.

بلل بن ذهيبة إبهامه على نحو لا شعوري وقلب بعض الصفحات وأدارها نحو أحمد ثم واصل حديثه قائلا:

"قضى الهواري مدة الخمس سنوات الأخيرة في المؤسسة العقابية لسيدي محمد بن علي. بتهمة حيازة المخدرات". توقف لحظة أطرق خلالها نحو الملف ثم أضاف:

"أما التهم الأخرى التي لم تثبت ضده فلا حصـــر لهـــا. منـــها اشتباهه في قضية قتل منذ سنة 2003، اختطاف، سرقة، تعـــدي... إلخ".

أغلق الملف بحركة من يده.

"الرجل ذو ماض حافل كما ترى".

"لقد فر من بين أيدينا في الوقت الذي نحتاج فيه إلى إجابـــات واضحة عن أسئلتنا". كانت في نبرة أحمد نوع من معاتبة للـــنفس، ولكن بن ذهيبة لم يتفطن للأمر.

"طلبت منا المحكمة هذا الصباح إطلاق سراح مشروط في حق مراد بطيب بعد تفنيد الأدلة التي تورطه في القضية، لم يعد مهما لنا، فالأمر ليس بتلك البساطة التي كنا نتوقعها". لم ينبس أحمد بكلمـــة وساوره القلق لسبب غير واضح.

"بطيب أستعمل كطعم وللأسف ابتلعناه بســـهولة وأظـــن أن الشخص المدبر لهذه الجرائم يعرف مراد معرفة جيدة. إذ قبل أسبوع من الآن قمت بفحص الوثائق التي تسببت بسجنه قبل ثلاث سنوات وذلك بمساعدة خبير في مجال التزوير فوجدناها مـــزورة بالفعـــل". توقف لحظة ليضع يده على ركبته المصابة.

"أثبت التدقيق أن الفاتورة قد تلاعب بها شخص آخر، يعمـــل في نفس الإدارة التي اشتغل فيها مراد ودليل مثل هذا لا يمكن أن نتجاهلـــه ونلقيه عرض الحائط. إذ لابد من تفسير معقول لكل ما حدث".

تململ أحمد في مقعده، يبحث عن وضعية مريحة.

"وجدنا الأرقام في الفواتير تحمل أكثر من القيمة الحقيقة للمشروع. قام المزور بتضخيم الفاتورة عن طريق وضع أعمال إضافية وهمية للمشروع. والسؤال الذي لازال يحيرني هو تورط البشير في هذه القضية من اخمص رجليه حتى آخر شعرة من رأسه و لم يلقى أي عقاب".

صمت برهة ليستطلع رأي بن ذهيبة الذي أشاح وجهه خلف كتفه ثم تمعن في العين المتورمة فترة بينما شابك أحمد بين ذراعيه وانتظر في صمت وراح بن ذهيبة يقول بتؤدة:

"أنت تتكلم عن شيء خطير لا نستطيع مجاراته. أظن أن لديه نفوذا في السلطة، أرباب المال في بلادنا هم من يسن لنا القوانين وهم من يدفع لنا رواتبنا، كيف تتوقع أن يسجن شخص مثل هذا، ستتوقف الجزائر يا صديقي".

"ولكن إن ظهر أنه سبب مباشر أو غير مباشر في ارتكاب الجريمة فلن أتوانى في القبض عليه والأجدر بك أن تفعل ذلك أيضا".

كان بن ذهيبة ينظر إلى أحمد بعينين ناعستين يطل منهما عدم الإكتراث ولمح أحمد طيف ابتسامة تحوم فوق زاويتي فمه.

"هذا أكيد. القانون فوق الجميع ولا يسعنا إلا تطبيقه، سنعمل ما بوسعنا والباقي على الله". رفع كفيه في الهواء مستسلما.

استأذن بالانصراف وهبّ من مكانه واقفًا وبدَا عليه عدم الارتياح لِما سمعه للتوّ. التقط النظّارة من فوق المكتب ثمّ وضعها على وجهه.

"علينا الاستمرار في التّحقيق لأنّنا إن لم نتحرّك بسرعة فسنفقد التّرابط بين الأحداث فلا يزال أمامنا أسبوع كامل".

-08-

لعق أصابعه ثمّ قلّب الجريدة، وأخذ في قراءة عمود في الاقتصاد، كان مضمونه أنّ أسعار البترول في انخفاض مستمرّ والحكومة تعلن عن حالة التّقشّف. كان يجلس أمام طاولة على«تِرَاسْ» المقهى. شدّ الصّحيفة بيد واضعا أصبعه كعلامة للصّفحة الّتي توقّف فيها. التقط باليد الأخرى فنجانًا من الشّاي السّاخن، تطفو فوق سطحه ورقة نعناع أخضر منعزلة. رشف من الكأس ثمّ أطبق شفتيه ليستسيغ الطَّعمَ الرّائع. أحسّ بالمشروب السّاخن يمرّ بحنجرته ليترك انطباعًا بالرّضا. أعاد فتح الصّفحة وأجال بصره في العناوين الرّئيسيّة. بدأ يندم لشراء الجريدة. مجرّد تدوير للأحداث وتلفيق كذبات منذ أكثر من نصف قرن. عناوين فضفاضة باللّون الأحمر لجسّ نبض الشّارع. دوّر الصّفحة التّالية وكانت في قسم أحوال النّاس. جمد في مكانه محدّقا إلى أسفل الصّفحة. وضع أصبعه على عنوان مكتوب بخطّ عريض كان مكتوبا بالعبارات التالية:

«**تفكيك شبكة تتاجر بالمخدّرات.**

عرفت مداخل بابا علي بمدينة معسكر ليلة الأمس تعزيزات أمنيّة كبيرة، انتشرت عناصر الأمن في عين المكان واضعة حواجز مراقبة في جلّ النّقاط، ودوريّات راجلة للبحث والتّوقيف لمجرم مطلوب للعدالة في قضايا السّرقة والاعتداءات المسلحة، والمتاجرة

بالمخدّرات. سبق الحكم عليه غيابيًّا بينما لا تزال مصالح الأمن تواصل التّحرّي.»

ازدرد كأس ماء بارد وأفرغه في جوفه جرعة واحدة. وضع باطن كفّه على فمه وتجعّدت المنطقة بجانب أنفه ثمّ تقلصت جبهته مبرزة خطوطا عميقة بسبب تكهرب في أسنانه جرّاء التقاء البارد بالسّاخن.

ارتفعت إلى الأعلى سحابة من الدّخان الأسود غطّت المشهد كلّه. لم يكن حريق غابة ولم يكن حفل شواء. وإنّما كان ينبثق من خلف سيّارة قديمة أصدر محرّكها الدّيازال أزيزًا مزعجًا.

كانت السّيّارة أشبه بدبّابة في صوتها وهي تشقّ طريقها فوق أرضيّة ملغّمة. أطلق أحمد سِبابًا متتابعًا، وألقى نظرة خاطفة في مرآة الصّورة الخلفيّة. أحسّ بالأبصار تزلقه وعلم أنّه في تلك الآونة محلّ سخط الجميع.

«أنا علم يرفرف في سمائكم ومحرّكي ضجيج يقضّ مضاجعكم. انظروا إليّ جيّدًا، بقرة وشَافَتْ رُومِي. هيّا انظروا، سأضخّكم بأكسيد الكربون. هيّا شهيق... و.. زفير..، تنفّسوا ببطء هيّا شهيييق..... ثمّ زفيير...»

خاطب نفسه بصوت مسموع وانفعال تجلّى في نبرات صوته الحادّة وفي ظل تلك العصبيّة جاء الدّور على أزمة جديدة. اشتعل ضوء المؤشّر وأشار إلى نفاد البنزين في خزّان الوقود، غيّر وجهته نحو محطّة البنزين.

على بُعد مائة متر ظهرت العمارة الّتي تقيم فيها زهيّة. ارتقى السّلّم صعودًا نحو الطّابق الثّالث ثمّ دقّ الباب برفق وانتظر. دارت

الأَكَرَةُ وفُتح الباب. أطلّ وجه أنثويّ خال من المساحيق. بدا لـــون بشرتها باهتًا حتّى كاد يسألها عن زهيّة ولكنّه تدارك نفسه في الوقت المناسب.

"أهلا زهيّة"

"نعم. ما الأمر؟"

كانت تسدّ ثغرة الباب بجسمها اللّحيم. واستشـــفّ في نـــبرة صوتها انزعاجًا ولكنّه لم يبال.

"لديّ بضع أسئلة أودّ طرحها"

ظنّ أنّه قال «افتح يا سمسم» لّما رآها تنزاح عن المدخل وتفسح له الطّريق ثمّ تبعها على الأثر إلى غرفة الضّيوف.

"الأمر يتعلّق بخليل"

حرّكت جفنيها تعبيرًا عن تفهّمها. فكرّر سؤاله مرّة أخرى:

"ما الّذي تورّط فيه يوسف وله علاقة بخليل؟"

حدّقت فيه، ثمّ انفرجت شفتاها تدريجيًا.

"لا أعرف عمّ تتحدّث"

بذلت جهدًا لتظهر وجهًا هادئًا.

"توفّي كلاهما في ظرف غامض ومن المرجّح أن يكون القاتل هـــو نفسه في كلتا الحالتين. لذا أطلب منك رجاءا التّفكير في الأمر مجدّدًا"

تحوّل لون وجهها إلى الرّماديّ فجأة واشتدّت قساوة نظراتهـــا نحو أحمد وكانت على حدّ قول الشاعر:

عَيناكَ قَد دَلَّتا عَينَـــيّ مِنـــكَ عَلـــى

أَشياءَ لَولاهُمـــا مـــا كُنـــتَ رائيهـــا

وَالعَينُ تَعلَـــمُ مِـــن عَينَـــي مُحـــدِّثِها

إِن كانَ مِن حِزبِها أَو مِـــن أعاديهـــا

"أؤكّد لك أنّي لا أعلـــم عمّـــا تتحـــدّث فكيـــف يمكـــنني مساعدتك؟"

طأطأ أحمدُ رأسه يائسًا فاضطرّ إلى استعمال آخر ورقة في يده.

"ماذا سيكون موقفك إزاء الشّرطة بعد أن تكتشف أنّك قمت بزيارة خليل في شقّته قبل مقتله بساعات؟!"

رأى تحرّكات عنيفة على مستوى عضلات وجهها وانحـــرف حاجبَاها نحو الأعلى. حاولت قول شيء ولكنّ كلماتها ضـــاعت في الهواء.

"كنّا....."

انقطعت عن الكلام، فحثّها على المواصلة.

"هيّا! أخبريني ماذا كنتما؟"

"كنّا صديقين مقرّبَين"

خاب رجاءُه لهذا اللّفّ الّذي تمارسه للتّهرّب من الجواب.

"تقصدين أنّك عشيقته. أليس كذلك؟"

مرّ فاصل صمت قصير قبل أن يمزّق صوتها غشـــاء الصّـــمت الثّقيل.

"نعم؟"

غاصت نظراتها القاسية لتتحوّل إلى شرود.

"اللّعنة تحيط بنا الواحد تلو الآخر"

"عن أي لعنة تتحدثين؟!"

أظلم جبينها وتخطّت أفكارها عالم المحسوسات. أتـى صـوت أحمد لينتشلها من رحلتها الميتافيزيقيّة.

"إنّها لعنة الموت. ألا ترى أنّ كلّ من يحيطون بـي يموتـون الواحد تلو الآخر؟!".

تركها لحظة لتستجمع قواها العقليّة.

"ماذا كنت تفعلين هناك؟ أخبريني".

"اتّصل بـي ليخبرني أنّه سيسافر بعد يومين".

"ولماذا اتّصل بك في ذلك الوقت؟"

بدَا وكأنّها بعثت من القبر للتّوّ.

"أراد منّي مرافقته"

زاد يقينه بأنّ خليل كان يتوجّس من شيء مـا لـذلك قـرّر السّفر فجأة. وربّما ذلك ما يفسّر سبب سحب جميع الأموال مـن البنك.

"إلى أين؟"

"قال أنّ عدم إخباري بوجهته، سيكون من أجل مصلحتي"

"مصلحتك؟ هل يهرب من أمر ما؟"

"لا أدري ولكنّني رأيته مرتبكا جدًّا"

كانت تنظر تارة إلى أحمد وطورًا إلى أصابعها المتوتّرة.

"لقد وجدنا أنّ كلاًّ من يوسف وخليل قاما بسحب ما يملكانه في البنك وذلك قبل مصرعهما بأيّام فقط. ألا يعني لك هذا شيئا؟!".

"آسفة قلت كلّ ما عندي"

أرغمته على التّوقّف عند هذا الحـدّ فهـب واقفًـا واسـتعدّ للمغادرة.

"لا أظنّ أنّ التّكتّم عن الأمر سيكون في صالحك. ما دمـــت لم أغادر المكان يمكننا التّوصّل إلى اتّفاق بيننا"

انتظر ردّها بفارغ الصبر ولكنّ جمود نظرتها أوحت باستحالة ما يروم إليه. بدت أشدّ صلابة وبرودة من جلمود غرانيتيّ.

-09-

تكاسلت الشّمس في كبد السّماء مطلقة سهاما حارقة، لتبــدّد كلّ ما يعترض طريقها من سحب في تلك الأثناء، دوّى آذان الظّهر من أعلى منارة في حيّ بابا علي.

خلال تلك المدّة لم يتوقّف أحمد عن السّير رغــم آلام ركبتــه المتزايدة، وكان يتفيّأ الظّلّ اجتنابًا لحرارة الشّــمس. فكــرة عــابرة تسبّبت في مضيّه قُدمًا نحو هذا الحيّ وانتابه إحســاس عميــق بــأنّ الهواري لن يبتعد أكثر من خمس مائة متر عن مكان إقامته السّــابق. على الحائط عبارات غرافيتي.

«***لا ترمي الأوساخ هنا***» مرفقة بسهم يشــير إلى الفضــلات المتكوّمة في الأسفل.

«***هذا ممرّ وليس مرحاض يا حمار***»

وتحت العبارة سائل أصفر يتجمّع على الأرض ويبــهت لــون الجدار حتّى يخيّل إلى المارّة من هناك أنّ الرّائحــة لــن تزايلــهم إلا بالاستحمام.

«**حياة أنتِ مونامور**»... «**دولة ز...**»

في ركن هادئ من الحيّ قصد بيتًا متواضعًا على جانب الممــرّ. دفع الباب الثّقيل ودلف إلى الدّاخل ومضى يعبر الفسقيّة المشمســة. شدّ الدّرابزين بيده اليسرى وارتقى نحو الطّابق العلويّ درجة بدرجة

منتبها إلى ركبته المصابة. ابتلّ قميصه تحت ابطيه وجفّ حلقه، فمسح جبينه بباطن كفّه ثمّ طرق على الباب وانتظر... أعاد الطّرق مرّة أخرى... لا شيء. طرق بعصبيّة هذه المرّة وكاد يغادر المكان إلاّ أنّه هذه المرّة كوفئ بخطوات أقدام بطيئة ترتدي خفًّا منزليًّا، تأرجح ثقب الباب ليفتح خلال دقيقة، وتألّقت عين بنّيّة اللّون ألقت نظرة خاطفة عليه، ثمّ أغلق الثّقب بخطفة سريعة وفتح الباب عن وجه بسّام.

"أهلا. أهلا. زارتنا بركة.. تفضّل، تفضّل".

تنحّى فُضيل عن مدخل الباب وهذه المرّة بدا مبتهجًا عن آخر مرّة رآه فيها، كان يحمل في يده منشفة استحال لونها الأبيض إلى البنّيّ، وشعر رأسه المشعث لا يزال مبتلاًّ، كان شبه عارٍ يرتدي شورتا تبلّلت حوافّه والتصق شعر رجليه بجلده وشكّل خطوطاً متعرّجة.

"ماذا كنت تفعل الله يرحم بُوكْ؟"

أغلق فضيل الباب بضربة من قدمه، ودلف أحمد إلى الدّاخل ورأى آثار الماء الّذي تركته قدماه على الأرض.

"كنت أستحمّ، تبًّا لك أنت تجلب النّحس، يلزمك حجاب ورقية شرعيّة لأنّك كلما أتيت عطّلتني عن شيء ما"

وأشار بيده إلى وجهه المبلّل وصفحة رقبته ثمّ قال:

"الصّابون لا يزال يلتصق بوجهي".

اتّجها نحو الأريكة في منتصف المنزل وفجأة شيء ما جعل فضيل يتسمّر في مكانه من الذّهول.

"سقطتُ من السّلّم. إنّه مجرّد التواء بسيط في الأربطة وسأتعافى بسرعة".

في الحقيقة لم يجد أحمد ما يقوله غير هذه الكذبة السّوداء.

"يا ابن آدم الدّورة ستبدأ الأسبوع المقبل، هل تسخر منّي".

هزّ رأسه ممتعضًا دون أن يشيح وجهه عن أحمد الّذي ظل يدور بعينيه في الغرفة لتهوين الأمر. ثمّ قال بلهجة خبير بالإصابات.

"إن لعبت بهذه الحالة، فستقضي بقيّة حياتك في لعب التّنس مع المخنّثين"

وأجاب أحمد بعدم اكتراث وسقط نظره على صرصور طائر كان يدبّ في الأرض ثمّ تسلّق الحائط ببطء يسبقه قرنَا الاستشعار.

"لا تقلق نفسك فضيل، سألعب حارس مرمى إن توجب الأمر" قال ذلك مبتسما ثم تهالك على الأريكة ونزع النظارة من وجهه ثم طوحها فوق الطاولة بجانب علب المالبورو الفارغة. كان فضيل يوليه ظهره ليعلق المنشفة على مسند الكرسي ثم التفت مرة أخرى وعاد يقول وقد شكمه مظهر الوجه المتغير عن الكلام لحظة، حتى استوعب الأمر.

"ما به وجهك أيضا، سلم آخر أم ماذا؟" مط أحمد جسده الطويل شعر برغبة في حك عينيه المصابة.

"أحتاج منك بعض المعلومات. هل مازلت تتردد على هؤلاء الأشخاص، هناك؟".

"من؟ جماعة الحاج وفيصل؟". أومأ أحمد برأسه إيجابا.

"أبتاع القنب منهما مرة كل يومين تقريبا. يقيمان بجانب بيت الحاجة لا لا خديجة القديم، أتذكره؟".

"نعم. أذكره جيدا"

صمت فضيل برهة ليهيأ لحديث آخر.

"أحمد. الكل يعلم بماذا حدث ليلة الأمس، وكذلك أستطيع تخمين من تسبب بتلك الكدمات".

"لولا حفظ الله وطول الأجل لكنت اليوم تصلي علي صلاة الجنازة وأنت تعلم الآن أني أتيت من أجل الهواري ولن أتركه يفلت من قبضتي هذه المرة. بالله عليك فضيل إنها آخر مرة أقصدك فيها عن شيء ما".

أطرق فضيل برأسه إلى الأرض وفكرا مليا في الأمر وأخيرا بدا أنه على استعداد لتقديم يد المساعدة.

"الرجل الذي قتل بالأمس كان يخادن جماعة الهواري منذ خروجه من السجن، وهو ابن الحي كذلك وجار قديم. أبوه كان صديقا لخالي لخضر". صمت برهة من الزمن تبادلا خلالها نظرات حاسمة.

"أتذكر المكان الذي ذكرته منذ قليل؟"

"حوش الحاجة لا لا خديجة القديم؟"

"نعم بالضبط ولكن هذه المرة لا تلعب دور البطل، دع تهورك جانبا فالحذر يغلب القدر"

"يبدو لي من حديثك أنه مع أشخاص مختلفين!! هل هم مسلحون؟"

"والله لا أدري ولا تورطني في الأمر أكثر من ذلك. لن أتكلم بعد الآن". قال ذلك بحدة مبالغا في إظهار مدى صرامته.

"لماذا تضحك، هل أنا أمزح هنا أم ماذا؟".

زوى ما بين حاجبيه وأودع تعابير وجهه كل صفات العبوس وما لبث أن انبسطت أساريره وابتسم بعدوى الضحك الذي انتاب

أحمد. أمسك بالمنشفة وكورها في قبضة يده على شـــكل كـــرة ثم سددها نحو وجهه المورم. ولكنها أصابته في بطنـــه وزادت وتـــيرة الضحك بعد أن أمسك بالمنشفة.

"أخخ... ما هذه الخرقة النّتنة؟!. أخخ.."

-10-

اشتدّ سواد اللّيل وكانت المدينة تنطق بالحزن والكآبة من خلال أضوائها الشاحبة الّتي تلألأت كشمعة تكاد تنطفئ. تراكمت السّحب في السّماء فحجبت النّجوم وضوء القمر. مشى أحمد خببًا بين المباني الهرمة، يدخّن لفافة تبغ على غير عادته. كانت اللفافة الخامسة على التّوالي.. قبل أربعين دقيقة كان في شقّته مستلقيًا يفكّر في أمر خطر على باله بعد أن جافاه النّوم. استقرّ به الرّأي أخيرًا إلى تنفيذ خطّته الّتي راودته منذ ساعات. غادر الشّقّة مصمّما على بلوغ هدفه مهما كانت النّتيجة. فالأمور وصلت إلى حدّ لا يطاق كما أنّ أعصابه لم تعد تحتمل الضّغط. ثمّة ثغرة أخيرة في هذه القضيّة وعليه إيجادها.

لبد عند زاوية منعطف الطّريق، كان الحيّ العتيق غارقا في الظّلام الدّامس، يسود أركانه هدوء كاذب. عطف إلى يساره سالكا طريقا يمتدّ في الظّلام لم يستطع رؤية نهايته، فيمّم شطره وأخذ يسير ببطء. رمى عقب السّيجارة على الأرض ثمّ داس عليه بقدمه ومدّ يده إلى المسدّس. كان القمر يختفي من وقت لآخر خلف سحابة، ثمّ لا يلبث أن يظهر من جديد، تمامًا كمشهد مخيف في أفلام الرّعب. تقدّم بضع خطوات إلى الأمام ثمّ توقّف برهة. صكّ سمعه صوت قويّ لقارورة من الزّجاج تدحرجت على الأرض.

اشتدّت قبضته على المسدّس وركّز نظره على جهة الصّوت. تسمّر في مكانه فاتحًا عينيه بدون طائل وسط موجات الظّلام القاتمة الّتي منعته من الرّؤية. حتّى ضوء القمر لم يجد طريقًا إلى هذا المكان.

عاد الصّوت مرّة أخرى. وكان قويا هذه المرّة، بدا وكأنّ شخصًا ما يتحرّك باتّجاهه. تزايدت نبضات قلبه في الخفقان وارتفع منسوب الأدرينالين في شرايينه بشكل رهيب. غاب ألم ركبته مع اندفاع الادرينالين، أراد أن يقدم على مخاطرة محسوبة، فوجّه ماسورة المسدّس إلى الأمام ثمّ دسّ يده في جيبه وتناول الهاتف وهذه المرّة شغّل الهزّاز بدل الرّنّة قبل أن يدخل الحيّ. مرّت عشر ثوانٍ قبل أن ينير مصباح الهاتف الصّغير. تجمّد في مكانه عندما لمح أشباحا تتحرّك بسرعة خاطفة لتختبئ في الظّلال، لقد كانت قططًا لعينة، كانت تعبث بالقمامة الّتي تراكمت منذ يومين على الأقلّ. أطلق سِبابًا متلاحقة وانتابته رغبة مجنونة لينتقم. أخيرًا عادت إليه أنفاسه المتقطعة.

وهدأ روعه رويدا رويدا ولكن دون أن يفقد حذره.

أعاد الهاتف إلى جيبه، وكان قد لمح بابا صدئًا مطليّا بلون أسود. يُفضي إلى بيت عتيق، من المفترض أنّه مجاور لحوش الحاجّة لَالاّ خديجة. كانت الحجارة تبرز من خلال الجدران السّميكة الّتي أهملت منذ عقود، قد يكون عصر هذا البناء يرجع إلى فترة ما قبل العثمانيّين بقرنين من الزّمن. كان الباب المؤدّي إلى ذلك البيت لا يغلق أبدا، إذ لا طائل من إغلاقه، فهنالك عدّة مداخل تكوّنت في الجدران المتصدّعة مع مرور الوقت والإهمال المتواصل.

وضع يده على الباب الثّقيل ودفعه برفق لكيلا يصدر صريرًا يجذب الانتباه. انسابت الأضواء من بعض النّوافذ على أرض الفِناء. رأى في إحدى النّوافذ خيال ظلّ يتحرّك داخل الغرفة، كان لرجل على ما يبدو. تقدّم بهدوء وحذر.

كانت هندسة البيت بسيطة، ثلاث حجرات والمطبخ في الوسط. مشى بخطوات متلصّصة، وبدأ يصله صوت مبتذل، صراخ أشبه بأنين لذّة كان مصدره من الغرفة الّتي شاهد فيها خيال الرّجل من خصاص النّافذة. تخطّى الغرفة الثّانية بسرعة تاركا ذلك الصّوت وراءه. ألقى نظرة مترقّبة حوله، ثمّ تقدّم نحو الغرفة الّتي تلي المطبخ. كانت الأضواء منعدمة بالدّاخل. وضع أذنه على الباب وأصغى ولكنّه لم يتمكّن من سماع أيّ صوت. وضع يده على أكَرة الباب فدار المزلاج بسهولة ولكنّه أحدث طقّة خفيفة نتيجة للصدإ الّذي حصل في لسان القفل.

انفتح الباب وكان المسدّس لا يزال في يده موجّها إلى الأمام ثمّ أخذ في الاهتزاز بشكل لا إراديّ. تحسّس بيده الحائط بجانب الباب ليجد زرّ المصباح. في تلك اللّحظة انتشر النّور من السّقف مبدّدا خيوط الظّلام المتناسجة في الغرفة. بدا المكان لأوّل وهلة كمختبر للأبحاث العلميّة. تقدّم نحو الدّاخل واشتدّت قبضته على المسدّس. قامت على طول الجدار الأيمن للغرفة طاولة معدنيّة، على سطحها أقنعة طبّيّة ومجموعة كبيرة من أكياس بلاستيكيّة صغيرة الحجم، تحتوي على مسحوق أبيض.

أغلق الباب خلفه بكعبه ثمّ رأى سريرًا لشخص واحد في ركن الغرفة، تنتشر فوقه معدّات لتغليف القنب الهنديّ وتقطيعه، أقراص الرّيفوتريل، باركيديل، السّيبيتاكس، وأكياس أخرى مليئة بأقراص

الإكتازيا، كان المكان بمثابة جنّة المدمنين والمنحرفين، وألفى بعض الأسلحة البيضاء، لمعت نصالها الحادّة تحت ضوء المصباح. كان الهواء عابقا برائحة الكحول الطبّيّة الحادّة.

مسح أركان الغرفة بعينيه فلمح شيئا جذب انتباهه. كان هناك قطع من الزّجاج المتناثر على الأرض بجانب السّرير وبقع عشوائيّة تصبغ الأرضيّة باللّون الأحمر. عمّ في الجوّ سكون غريب محمّل برائحة أكثر غرابة بدأت تزداد قوّة مع عبوره صدر الغرفة، وعلى يمين السّرير ثلاّجة صغيرة الحجم يوضع فوق سطحها الأملس نفّاضة سجائر. كانت خيوطها تصدر شرارة كهربائيّة مزعجة. غمز الضّوء أثناء تقدّمه خطوتين إلى الأمام وكأنّه يدعوه للحذر. مع كلّ خطوة كان يخطوها ازدادت البقع الحمراء في الظّهور من وراء السّرير. ساق قدما إلى الأمام وصوّب مسدّسه تحسّبا لأيّ حركة مفاجئة.

دقّ قلبه بعنف وظهرت العروق من خلال معصمه وهو يشدّ على المسدّس، تقدّم خطوة أخرى إلى الأمام. كان مرتبكا وأحسّ بالعرق البارد ينساب عبر عموده الفقريّ. تجمّدت الدّماء في عروقه فجأة، تسمّر في مكانه لا يكاد يصدّق ما تراه عيناه. كان المشهد مكتملا والمنظر بشعًا، إنّها اللوحة الّتي تحدّث عنها ذلك المختلّ في رسالته. جثّة هامدة ترقد على الأرض في سكون غير آدميّ. حشر المسدّس خلفه في حركة سريعة وانخفض ليتفحّص الجثّة. لم تتغيّر ملامح الهواري كثيرا وهو فاقد للرّوح. لا تزال لمسات العبث والخطورة تتجلّى في ندوب وجهه وقوّة عارضيه. غير أنّه لاحظ مسحة من الجمود والبرودة تتمثّل على بشرته الشّاحبة. كان مستلقيًا على ظهره ورأسه يرتكز على الحائط ليغوص داخل صدره المضرّج

بالدّماء. كانت ذراعاه المرتخيتان تنبسطتان على الأرضيّة وفي قبضة يده اليسرى مسدّس من عيار بيريتا 9 مليمتر.

انتبه لحركاته في حذر وهو يتفحّص مكان الإصابة. لاحظ جرحًا عميقا على مستوى الرّأس، لابدّ أنّ الضّربة كانت مهلكة. دون أن يلمس أيّ شيء مال إلى الحائط باتّجاه الرّأس واستطاع أن يلمح ثقبًا عميقا اخترق جمجمته.

شخص ما أطلق عليه الرّصاص من دون شكّ فقد كان دماغه مهشّما بالكامل. كان المشهد يدلّ على أن الرّجل انتحر بسبب هلوسة حادّة أو حالة هستيريّة جراء تعاطي المخدّرات. ولكنّ الأمر الّذي لم يستوعبه هو مكان الرّصاصة. لو كان ذلك في صدغه، أو في فمه أو تحت ذقنه لكان ممكنا، أمّا في تلك المنطقة فأمر شبه مستحيل. وازدادت حيرته فأخذ يفكّر في احتمال وجود قاتل آخر ولكن من يكون هذا الشّخص؟

بات الأمر أكثر تعقيدًا، فبدلا من الحصول على إجابات تظهر جثّة أخرى. يبدو أنّ الأمور قد بدأت تخرج عن سيطرتهم. انتابه نوع من الإحباط بعد فشل في الوصول إليه أوّلا. الهواري همزة الوصل الوحيدة في القضيّة لذلك شعر القاتل بالخطر فأجهز عليه قبل أن تصل إليه الشّرطة. أسئلة باتت تعلّق في رأسه كالغراء وتفرض عليه نسقًا من التّفكير

«مَن الّذي استفاد سابقا من اتّهام مراد وسجنه؟ ومَا الّذي سيجنيه من مقتل يوسف قدادرة؟!»

غير أنّه أجّل ذلك إلى وقت لاحق، عندما كان يتفحّص الأغراض الّتي تعجّ بها الغرفة. فلمح قارورة داكنة بنّيّة اللّون. استيقظ

الجزء المسؤول في دماغه عن تمييز الرّوائح. رفعها وقرّبها إليه فقرأ على الملصق الكلوروفورم. نفس المادّة الّتي أخبره عنها الطّبيب الشّرعيّ يوم وجد خليل ميّتا داخل شقّته.

تناهى إلى سمعه وقع أقدام في الخارج، بدا وكأنّها تقترب من الباب ثمّ توقّفت فجأة، وبجانب النّافذة الوحيدة في الغرفة لمح أحمد طيفا يمرّ كالظّلّ. اتّجه نحو مدخل الغرفة يشدّ المسدّس بقبضة حديديّة. وما إن وصل إلى هناك حتّى اختفى الظّلّ وذاب في الظّلام. ربّما كان يتوهّم فالّروائح بالدّاخل قويّة جدًّا.

كانت الشّرطة في طريقها إلى هذا المكان. نظر إلى ساعة معصمه وانتظر قدوم أفراد الشّرطة بفارغ الصّبر، فكّر أحمد في أنّ الأمور مهما خرجت عن سيطرتهم فإنّها ستعود إلى نصابها حتمًا. إنّه قانون الحياة، إذ لا رماد مِن دون نار.

-11-

كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة صباحا. بقي ممدّدا في سريره فترة ثمّ استند على مرفقيه ليجلس على حافّة السّرير. تذكّر حلمه تدريجيّا، ومضات ثمّ شريط من الأحداث العشوائيّة. رأى نفسه يرتقي هضبة شديدة الانحدار، لا تظهر نهايتها لشدّة ارتفاعها. ظلّ يمشي ويرتقي العقبات دون أن يبلغ قمّته الشامخة والّتي أخذت تختفي وراء الغيوم. فقد السّيطرة على حركته وكلّت قدماه فلم يستطع حراكًا. وهكذا أحسّ بالتّعب بعد استيقاظه من النّوم. سقط كجثّة هامدة ليلة أمس، فبعد تلك الأمسية الرّهيبة زاره النّوم أخيرًا.

كان لا يزال يرتدي سروال الجينز. عجب لنفسه كيف نام. دون أن يزعجه ذلك. أخذ حمّامًا باردا ثمّ أعدّ الشاي، وجلس إلى طاولة المطبخ، يتثاءب ويحتسي الشّراب السّاخن، المعدّ بنكهة النّعناع، وعاد يفكّر في هدوء بعد رشفة من فنجانه، كان قد أعدّ خطّة حول ما سيفعله في هذا اليوم بالتّحديد.

خرج من شقّته منتعشًا، ومشى الهوينى على الرّصيف. كان يتّجه نحو مديريّة سونلغار لتسديد فاتورة الكهرباء. وأثناء الطّريق نشط خياله إلى أن اضطرّ إلى التّوقّف في مكانه. ومضت في ذهنه فكرة لا تقبل النّزول عن تنفيذها. غيّر وجهته تمامًا ودار 180 درجة نحو الجهة المعاكسة. أجّل تسديد الفاتورة لاحقًا. كان حيّ سيّدي

محمد بن علي يقع على بعد مسافة عدّة مباني من ساحة ابن باديس. نظر إلى ساعة معصمه وكانت تشير إلى الثالثة والنّصف زوالا. ما يعني وقت خروج العمّال من مكاتبهم. حثّ خطواته ولولا حياءه لركض بأقصى سرعته. بعد عدّة أمتار بدأ يتصبّب بالعرق. كلّ ما كان يخشاه اصطدامُه بعراقيل تثنيه عن عزمه. خاصّة وأنّه لا يملك أيّ رخصة لدخول السّجن.

من حسن حظّه كان المدير لا يزال داخل مكتبه. وقف أمام السّكرتيرة يمسح العرق المتراكم على جبينه. طلب مقابلة المدير فأذنت له السّكرتيرة بالدّخول، بعد أن خرجت من مكتبه وأعلمته بقدوم زائر. سارت الأمور بعد ذلك بسلاسة لم يكن ليتوقّعها في مكان كهذا، فقد وجد رحابة صدر وتعاونًا من طرف مدير السّجن. تمكّن من معرفة مجموعة من التّفاصيل المهمّة، منها اكتشافه رقم الزّنزانة الّتي مكث فيها الهواري رفقة شخص آخر يدعى جمال صفاج. نفس الرّجل الّذي وجد مقتولا بعد حادثة احتجازه.

كانت الزّيارة مثمرة ونتائجها غير متوقّعة. بعد خروجه من السّجن، بدَا شارد الذّهن، يفكّر في خطوته التّالية والّتي ينبغي أن يسلكها. انقلبت الموازين في لمح البصر وتغيّرت نظرته للأمور من أساسها. «كيف لم أتفطّن للأمر من قبل؟»

كان في تلك اللّحظة يتسابق مع الزّمن. كان عليه أن يتصرّف قبل فوات الأوان.

-12-

صعد نحو الطّابق الثّاني مسرعًا، متجاهلا ألم ركبته الّتي لم تتعافَ بعد. طرق الباب وانتظر. تمنّى أن يكون حدسه خاطئًا. فتح الباب عن عجوز تكسو وجهها التّجاعيد وبدأت خيبة الأمل واضحة على ملامحها وهي ترى أحمد وكأنّها توقّعت رؤية شخص آخر.

"آسف على الإزعاج سيّدتي. أتيت لأسأل زهيّة عن..."

ولم يكد يتمّ جملته حتّى قاطعته قائلة:

"زهيّة ليست في البيت، هي غائبة منذ أمس".

وقع ما كان يخشاه.

"وهل لديك فكرة ما عن المكان الّذي تتواجد فيه؟"

هزّت رأسها ذات اليمين والشّمال.

"لا. لو كنت أعرف مكان ابنتي لاتّصلت بها مباشرة. ليس من عادتها التّغيّب كلّ هذه الفترة"

"متى غادرت البيت لآخر مرة؟"

تهدّج صوتها بشكل مريب:

"منذ الأمس على السّاعة السّابعة والنّصف مساءا".

"هل حاولتِ الاتّصال بها؟"

تعاظم قلقه وهو يحدّق إلى الوجه الحزين، أطرق رأسه وقد ألهب مظهرها الكئيب أفكاره القاتمة.

"هاتفها مغلق. لم أنم هذه اللّيلة بسبب قلقي عليها. أنا أنتظر قدومها في أيّة لحظة ولكنّها لم تظهر بعد. أيمكن أن يحلّ بها مكروه؟!"

توسّمت في ظهوره أمل الحصول على إجابة تشفي غليلها.

"لا تقلقي سأقوم بالبحث عنها. ولكن إذا ظهرت مجدّدًا لا تتردّدي في الاتّصال بي فورًا. وإغلاق الباب وعدم السّماح لأيّ كان بالدّخول!. هل هذا مفهوم؟!"

"نعم"

غادر العمارة وهو لا يلوي على شيء. كان إحساسه في محلّه هذه المرّة. أدرك أن أيّ تأخّر سيؤدّي إلى جريمة أخرى وخروج القضيّة عن السّيطرة تمامًا. قرأ في إحدى كتب الفلسفة أنّ الشّكّ يقود إلى الفحص الدّقيق لما يُعتقد معرفةً. وبالتالي إعادة النّظر في الواقعيّة السّاذجة لتكوين فكرة واضحة عن المجرم الحقيقيّ. أزمع على مجابهة الأمر وجهًا لوجه فاستقلّ سيّارة طاكسي ثمّ اتّجه إلى غرب المدينة. اتّصل بكهينة ليعلمها بوجهته الجديدة وطلب منها عنوان أحدهم. أقفل الخطّ بعد أن طلب منها موافاته هناك رفقة عناصر الأمن.

لم يمض زمن طويل حتّى وصل إلى العنوان المطلوب. كانت العمارات متراصّة وتتخلّلها مساحات ترابيّة مهملة وطريق إسفلتيّ يسمح بمرور سيّارة واحدة فقط. كانت الشّمس تميل نحو الأصيل والسّماء تتخلّلها بعض الغيوم. بدت كقطن متفرّق تلاعبت به أصابع صبي. أجال بصره في المكان وتحرّكت قدماه بثبات. فجأة برز شخص من بين السّيّارات المركونة داخل حيّز مستطيل على شكل

ملعب كرة قدم. كان يمسك بسلسلة تنتهي بطـــوق يلـــفّ عنـــق «بيتبول» ضخم البنية. اقترب من الشّخص بحذر فالتفـــت الرّجـــل نحوه.

"مراد يجب أن ترافقني إلى مركز الشّرطة"

اهتزّت السّلسلة في يده بعنف وانغرز الطّوق في رقبة البيتبـــول حتّى خيّل إليه أنّ رقبته ستنقلع بفعل الشّدّ. كان نباحه حادًّا وأسنانه قاطعة. حاول التّركيز على ما سيقوله.

"انتهى الأمر مراد. لقد ظهرت حقيقتك كاملة ويجب أن تسلّم نفسك".

كان أديم السّماء أزرقَ تتخلّله سحب بيضاء بـــدَا للحظـــات وكأنّها تتوقّف في مكانها. في تلك اللّحظات أخرج مـــراد مســـدّس بيريطا 92 من تحت قميصه وصوّبه نحو أحمـــد. انقطعـــت الرّيـــاح وتوقّفت الأرض عن الدّوران فجأة. كان كلّ ما يـــراه هـــو فوهـــة المسدّس مصوّبة نحوه.

"لن أرافقك إلى أيّ مكان"

بدت ملامحه متصلّبة وقد أظلم جبينه فجأة وهو يبذل جهـــده للإمساك بالكلب.

"إهْدَأْ مراد أعلم ما عانيته في الماضي. الآن عليك أن تتوقّف لأنّ الأمور قد بدأت تخرج عن سيطرتك"

حاول أحمد كسب المزيد من الوقت وإلهاءه بالكلام للخـــروج من الورطة.

قاد يده نحو خصره بحثًا عن المسدّس.

"إرمِ المسدّس جانبًا وإلا أطلقت النّار عليك!"

زاد غضبه من هياج الكلب ونباحه.

رفع يده مستسلما ورمى المسدّس أمامه على بعد متـــرين. دقّ قلبه بعنف كالرّعد وهو ينظر إلى فوهة المسدّس. كان جسمه كلّـــه ينضح بالعرق فراح يأخذ أنفاسًا عميقة وبطيئة ليهدّئ من نفسه.

"العاقل من افتتح في كلّ أمر خاتمتـــه

وعلم من بدء كـــلّ شـــيء عاقبتـــه

ألا تذكر هذا البيت؟ يبدو أنّك لم تعرف عاقبة تهوّرك عنـــدما حشرت نفسك في الأمر. إنّني أطبّق العدالة الّتي عجز عنها القـــانون. هذا كلّ ما في الأمر. وأنت الآن تقف ضدّ هذه العدالة".

انشقّت شفتاه عن ابتسامة غريبة، عكس بريق عينيه الّذي أنذر بشرّ مستطير.

كان لعاب الكلب يتطاير من فكّه القويّة. ورأى في تلك الأثناء سيّارة الشّرطة تقترب نحوهما. تحرّر الكلب من طوقه وانقضّ عليـــه. قبل أن يبلغ المسافة الّتي تفصله عن المسدّس، شعر بأسنان قوية تنغرز داخل ذراعه. فقد توازنه وارتطم بالأرض. أحسّ بســـائل ســـاخن يتدفّق من ذراعه فوق صدره ويغطي كتفه. قاوم بشدّة ولكن ذلـــك زاد عضلات البيتبول أشدّ انقباضًا. قاوم بشدّة واســـتمات ليحـــرّر نفسه، ولكن العضّة كانت أقوى ممّا يتخيّل. أفقدته قوّته وتركيـــزه فاستسلم أخيرًا وبدأت نظرته تصبح ضبابيّة وتلاشت الصّـــورة مـــن أمام عينيه تدريجيّا، وأثناء ذلك وفي اللّحظة الّتي تسبق فقدان الوعي، سمع صوتا شبيها بطلقات ناريّة، أعقبها نباح خافت. رفـــع نفســـه بعناء، وبالكاد كانت ركبتاه قادرتين على حمله. سال الـــدّم غزيـــرًا على قميصه. عضّ على شفتيه ألمًا وهو يمسك بذراعه المصابة. التقط

المسدّس من الأرض وقبل أن يستوعب الأمر. كان الكلب ملقى يتمدّد على الأرض بدون حراك، يبدو أنّ تلك الرّصاصة أصابته. ثمّ رأى مراد يستلقي على الأرض إثر إصابة في فخذه. وقد همّ شرطيّان بتقييده.

كانت كهينة من أنقذته بتلك الطّلقات النّاريّة. بحيث رآها تقترب لاهثة وهي تضع المسدّس في جرابه. تفقّدت الكلب ثمّ دنت من أحمد وقد استولى عليها الذّعر.

"هل أنت بخير؟ ذراعك تنزف أحمد"

تغضّنت ملامحه وهو يضع أصبعا على الجرح.

"لا تقلقي أنا بخير، هل وجدتم زهيّة؟"

"نعم لحسن الحظّ، وجدناها داخل شقّته مقيّدة ولكنّها بخير"

تنهّد أحمد بارتياح وازداد ألمه مع مرور الوقت ثمّ سمع كهينة تقول بلهجتها العاصميّة:

"دعنا نأخذك إلى المستشفى، فأنت تنزف بغزارة!".

وساقت يدها دون شعورها إلى معصمه فأحسّ برعشة في جسده وكأنّها تيّارٌ كهربائيّ مرّ بجسده. استرجعت يدها في رفق وهي تنظر إليه في قلق.

"لن أذهب للمستشفى إلاّ بشرط"

نظرت إليه في حيرة.

"حسنا. ما هو؟".

"رافقيني إلى هناك!".

ابتسمت موافقة ثمّ لفّت ذراعه بيدها النّاعمة وغادرا المكان.

-13-

في صباح اليوم التّالي. عُقد اجتماع في الطّابق العلويّ واستُدعيَ جميع أعضاء القسم. اضطرّ بن ذهيبة في ذلك اليوم رغما عنه إلى إفساح المجال لأحمد. الّذي بسط ذراعه اليسرى فوق الطّاولة في وضع مستريح، وكانت يده الأخرى مضمّدة بإحكام. وضع رجْلا فوق الأخرى بينما نقرت أصابع يده بحركة عشوائيّة على سطح الطّاولة. جلست كهينة على الجهة المقابلة وأخذت تمسّد شعرها بحركة رشيقة من ذراعها. تبادلا الألحاظ لفترة وذلك قبل أن يطبق الصّمت على القاعة ويرغَم الحاضرون على الانتباه.

كان بن ذهيبة يشتعل حنقا، وهو يرى الوجوه تولي اهتمامها شطر الشّرطيّ الأكثر إثارةً للمتاعب في القسم.

"قبل التّطرّق للموضوع سأترك كهينة توضّح لكم بعض الأمور فهي أقدر منّي في ذلك"

احمرّت وجنتاها من شدّة الحياء وما كانت تتوقّع أن يباغتها بهذه المهمّة.

"حسنا. لنبدأ بعرض القصّة من نهايتها".

طوّحت شعر رأسها إلى الخلف ثمّ أردفت:

"بعد تلقّي اتّصال أحمد، توجّهنا إلى المكان لموافاته. بعد أن قبضنا على مراد، فتّشنا الشّقّة فعثرنا على رهينة محتجزة هناك. تدعى

زهيّة وجدنا أنّ لها علاقة مع كلّ ما حدث في الآونة الأخيرة. من حسن الحظّ أنّنا وصلنا إليها في الوقت المناسب".

اشرأبّت الأعناق حولها وتطلّعت إلى سماع المزيد. زادها ذلك ارتباكا وحياءا.

"بعد تفتيش الشّقّة عثرنا على مبلغ من المال، والأهمّ من كلّ هذا أنّنا وجدنا سائل الكلوروفورم، هذا المخدّر الّذي استعمله للإطاحة بفريسته في كلّ مرّة".

توقّفت لحظة عن سرد الأحداث، لتستردّ أنفاسها من شدّة الانفعال.

"هذا كلّ شيء. فمن خلال المعلومات الّتي بحوزتنا، علمنا أنّها حجزت تذكرة ذهاب إلى باريس قبل يومين فقط، وذلك عقب تحويلات ماليّة ضخمة قامت بضخّها في أحد البنوك الأجنبيّة. وهو نفس البنك الّذي أودع فيه كلا الضّحيّتين أقصد يوسف وخليل أموالهما من قبل، فقد قامت بالاحتيال على الرّجلين بطريقة ماكرة".

"يبدو أنّ هذه الأخيرة شعرت بالتّهديد يلاحقها وخاصّة بعد مصرع خليل، فحاولت الهروب قبل فوات الأوان. ولكنّها وقعت في الفخ الّذي نصبه لها مراد منذ البداية. ومن حسن حظّها أنّنا وصلنا إليها في الوقت المناسب".

توقّفت عند هذه النّقطة لترى إن كان ما تقوله إلى حدّ الآن قد قدّم الإضافة اللاّزمة. وكانت النّتيجة مرضية، وطغى الصّمت على القاعة. كان أحمد يرمقها بإعجاب، والسّرّ وراء طلبه السّابق هو حبّه للكنتها العاصميّة. وسمعت إذْ ذاك صوتا مباغتا أتى من جانب القاعة. التفتت فرأت فتحي يتكلّم:

"مادام أنّها عرفت أنّه وراء كلّ الجرائم المرتكبة فلماذا لم تَشِ به من قبل علمًا أنّها كانت مستهدفة منذ البداية؟"

"كان لديها خياران" تدخّل أحمد أخيرًا.

"الخيار الأوّل تمثّل في اعتقال مراد بتهمة القتل وبالتّالي الخروج من الورطة بأقلّ الأضرار ولكنّنا في الأخير لم نجد دليلا كافيًا لإدانته، فأطلق سراحه. بالتّالي أصبح أمامها خيار أخير، وهو أن تلوذ بالفرار مع ما خفّ حمله وثقل ثمنه. أعني التّحويلات الماليّة الّتي قامت بها. ثمّ ترتيبات السّفر نحو فرنسا".

توقّف برهة يتفرّس في الوجوه المحدّقة:

"أظنّني تحدّثت طويلا عن شيء ثانويّ، لنعد إلى البداية، حيث إنّني قلت في أوّل الأمر أنّ كلاًّ من خليل ويوسف كانَ يفرّ من شيء ما ولكنّني لم أكن أعلم حينئذ السّبب في ذلك. ولكن بعد التّحقيق في الاختلاسات الّتي وقعت قبل ثلاث سنوات تبيّن أنّ مراد كان بريئا تمامًا. ممّا جعلني أعتقد بوجود شيء مشبوه إزاء تلك القضيّة. كانت هناك مؤامرة خبيثة حيكت بين خليل ويوسف للإطاحة بمراد الّذي مارس عمله تحت ضغوط رهيبة، وتحت التّهديد بفصله عن العمل في عدّة مناسبات. من أجل تغطية الرّجلين.

"في خضمّ هذا النّزاع، لاحت في الأفق مشكلة جديدة، تزامنت مع ظهور زهيّة. اكتشفتُ بعد التّحقيق أنّها كانت مرتبطة مع يوسف-مديرها السّابق-في علاقة شرعيّة (زواج عرفيّ). كانت هي من تسبّبت في تدمير مراد وإرساله إلى السّجن. كان دورها يتمثّل في عقد الصّفقات المهمّة لإنجاز بعض المشاريع. سمح لها نفوذها لتتلاعب بأرقام المشاركين في المناقصات الوطنيّة لصالح شركة بناء معيّنة.

وتقوم هذه الشّركة بدورها، بتسديد شطر من المال إلى حسابها الخاصّ. ولسدّ هذه الثّغرة الماليّة لابدّ من حلّ آخر. يتمثّل هذا الحلّ في إنشاء علاقة خاصّة مع خليل، ثمّ توريطه في الأمر ليكون سندا لها في الخطّة. وبالتّالي تكون المصادقة على كلفة المشروع المضافة، أعني الوهميّة، بدون متاعب. لتدفع الخزينة في الأخير هذا المبلغ للشركة".

"ولتكون الخطّة مثالية، وجب عليهم التّضحيّة بشخص آخر، له علاقة مباشرة بالموضوع. كان هذا الشّخص المثاليّ، هو بطّيّب مراد. كلّكم تذكرون تلك الوثائق المزوّرة الّتي تسبّبت في توقيفه. فبعد التّحقيق في الوثائق وجدنا أن التّوقيعات ليست لمراد، وإنّما هي لشخص آخر قام بمحاكاة التّوقيع الأصليّ".

"أمّا مراد فقد انحدرت حياته بشكل رهيب وتعقّدت أوضاعه؛ فقد عانى الرّجل من مشاكل عائليّة وعاطفيّة جعلته يفقد رشده لاحقًا. طلبت زوجته الطّلاق بعد أيّام من سجنه وتزوّجت مرّة أخرى وهو لا يزال داخل السّجن، ثمّ لم تمرّ أشهر عديدة حتّى توفّيت والدته إثر مرض عضال في دار العجزة. كلّ ذلك كان له الأثر البالغ على نفسيّة مراد. فقد علمتُ من خلال زيارتي للسّجن أنّه كان يعاني من أعراض انفصام الشّخصيّة، وأوشك إطلاق سراحه بعد عامه الأوّل، ولكنّهم عدلوا عن قرارهم بعد أن بدَا متماسكًا.

هناك في السّجن قام بإنشاء علاقات جديدة مع نزلاء آخرين، أين تعرّف على الهواري، لتستمرّ العلاقة إلى ما وراء القضبان. أظنّكم تذكرون مادّة الكلوروفورم الّتي استعملت للقضاء على خليل. وجدنا لاحقا بعد مقتل الهواري كمّيّة من نفس المادّة داخل مسرح الجريمة، والّتي جعلتنا نعتقد أنّ القاتل في حالّتي يوسف وخليل هو نفسه.

وبالفعل كان الهواري بمثابة قاتل مستأجر من مراد. إذ كان بينهما اتّفاق على أن يتقاضى هذا الأخير مبلغا ضخما لقاء ما يقوم به. حصل مراد على المال عن طريق ابتزاز كلّ من يوسف وخليل عن طريق تقديم أدلّة تدينهما أو عن طريق التهديد بالسلاح، وهذا ما يفسر سبب رغبتهما في الهروب. أعترف أن مراد قام بخطوة جريئة وذكية حين قام بتسليم نفسه. اضطرّنا إلى إخراجه من حساباتنا بعد وفاة خليل. خدع الجميع وأبعد نفسه عن دائرة الاتّهام ممّا سيهيّئ له الفرصة الذّهبيّة فيما بعد لإتمام عمله الإنتقاميّ في هدوء".

أطلق زفرة عميقة كمن يتأسّف على ضياع شيء ما.

"إذا رأينا القضيّة منذ البداية فإنّنا لم نجد أيّ رابط بين الهواري والضّحايا. ممّا جعلني أشكّ في وجود طرف آخر. ذلك ما قادني إلى التّحقيق في ماضي كلّ من الضّحايا الثلاث، فعثرت على خيط قادني نحو الحقيقة. كان عليّ التأكّد من أمرما، فقمت بزيارةٍ إلى السّجن، أين قضى مراد ثلاث سنواتٍ هناك. لم أكن لأتخيّل أن تلك الزّيارة ستسفر عن حلّ كلّ المشكلات الّتي استعصت عن الحلّ. ومن حسن الحظّ أنّنا تحرّكنا في الوقت المناسب".

-14-

كانت تتأبّط حقيبة اليد وتنقل خطواتها في رشاقة ملفتة للأنظار، وأحسّت وكأنّ طيفا بشريًّا في أثرها وتضايقت أشدّ الضّيّق حتّى حثّت خطواتها لتبتعد عن الطّيف. لم يكن من ضمن عاداتها التلفّت نحو الأشخاص دون سبب وجيه. كانت ترتدي سروال جينز بلون الخردل وقميصا مزركشا بالورود. وتعقص شعرها الكستنائيّ بإحكام إلى الوراء. حانت منها التفاتة اتجاه مصدر النّداء.

"كهينة... كهينة"

وقفت وجهًا لوجه أمام رجل طويل القامة، تبدّدت نظرتها الصّارمة في الخجل لمّا رأت أحمد يقف أمامها على بعد أقلّ من متر. كان يتفحّص مظهرها دون أن تعلم بذلك. ارتبكت لدى رؤيته وعّبرت عن ذلك الإحساس المباغت بابتسامة هادئة. استطاع أن يقرأ تلك النّظرة في عينيها. أراد أن يتكلّم ولكن كهينة سبقته إلى ذلك:

"أحمد؟ كيف حالك، ماذا تفعل هنا؟!"

كانت لهجتها العاصميّة تهزّ قلبه من أعماقه. شعر بانقباض في معدته، وجاهد نفسه ليمنع أيّة كلمة حمقاء قد تصدر من بين شفتيه المرتعشتين. رفع كيسًا ثقيلا ثمّ أشار إليه بإيماءة من رأسه.

"أتبضّع كما ترين، الخضر والموادّ الغذائيّة".

توقّف لحظة ليضبط انفعاله، ثمّ ليبرّر طريقة التقائه بها.

"لمحتك عن طريق الصّدفة تمرّين من هنا، فلم أرَ بدًّا من اللّحاق بك"

ندت عنه ابتسامة عصبيّة وتطلع إلى تعابير وجهها المتناسقة، آملا أن تكون حجّته قويّة بما فيه الكفاية. ومع خفقات قلبه المتسارعة وقع كلامها من نفسه موقع الماء من ذي الغلّة الصّادي.

"ماذا ستطبخ لنا بهذه الخضر يا ترى؟ إنّي أتعجّب لكونك طبّاخا!"

"في الحقيقة أنا أسوأ طبّاخ على وجه المعمورة، أردت كسر الرّوتين فقط، لذلك سأطبخ هذه اللّيلة عشاءا فاخرًا في المنزل"

سدّت فمها بيدها وهي تحاول السّيطرة على ضحكتها وتوّجَتْها بسخرية مخدّرة.

"مممم.. لا تنسَ أن تترك لي نصيبًا من الطّعام! الظّاهر أنّ الوجبة ستكون لذيذة"

«ولكن ليس ألذّ من شفتيك»

"سأعمل على أن يكون الطّعام شهيًّا. وإن كان كذلك ستكونين أوّل من تتذوقينه، ولكن لن أتسامح معك إن سخرت منّي"

نظر إليها من خلال زاويتي عينيه كتوكيد لتحذيره إيّاها.

"هه.. هه.. حسنا موافقة"

"هل تسمحين بأن أرافقك في الطّريق؟"

خرجت هذه الكلمة من فمه دون وعي، ولكنّها أتت بمفعولها السّحريّ.

"إيهْ.. بيان سوغ"

تلك اللّهجة قتلته وأراد سماع المزيد.

"كيف أحوال العمل؟"

"بخير أنت تعرف، الرّوتين نفسه على مدى 365 يومًا.. كما أنّ الحرارة الّتي لا تطاق..."

انتبهت إلى الأكياس الّتي كان يحملها فمدت يدها نحوه قائلة:

"دعْني أحملْ معك هذه، ذراعك لم تُشفَ بعد!"

كان صدره رحبًا إزاء كلّ مبادرة منها. فسكر بنشوة إحساسه بالرّضى وتركها تساعده على حمل أخفّ كيس.

"شكرًا لك"

لحظة صمت وعاد يقول:

"قرأت رسالتك الأخيرة، كانت رائعة"

كادت تتعثّر عندما سمعت تلك الكلمة الأخيرة، وهما لم يتخطّيا بعد مرحلة التّواصل عبر الهاتف والفايسبوك، لذلك كان لوقع كلامه عن إعجابه برسالتها مباشرة، أثرٌ بالغٌ في قلبها. هزّها من الأعماق، ولكنّها كانت أفضل منه في مداراة عواطفها. قد يكون لذلك علاقة في عدم رغبتها للتّمادي في علاقة لا تعرف عواقبها. إلا أنّها أحسّت نحوه بجاذبيّة غريبة كانت لتسخر منها في حياتها السّابقة. أمّا أحمد فكان أمله منوطا برغبتها فيه ومدى احتياجها إليه.

"ظننت أنّك لم تقرأها بعد"

كانت تتكلّم في شبه دلال وإن طغت نبرات الحزم على كلامها وكان لسان حالها يقول:

«لماذا لم تردّ عليها؟! ما الّذي منعك؟! ولكن سأردّها لك واحدة بواحدة.»

"في الحقيقة مررت بظروف صعبة خلال اليــومين المنصــرمين ولكنّي فكّرت فيك في كلّ لحظة"

رنا بصره إليها ليرى انعكاس كلماته على ملامحها ويبدو أنّها لم تقتنع بعد بما قاله للتّو.

اقتربا في تلك اللّحظة من متجر يبيع المأكولات فتوقّفــا أمــام الباب الزّجاجيّ واستعدّ أحمد للّحظة الحاسمة. ولأوّل مــرّة ودون أن يتوقّع ذلك، قامت بحركة رشيقة مفاجئة، فشدّته من ذراعه وجذبته معها إلى داخل المتجر، ثمّ قالت موضحة تصرّفها المفاجئ:

"أريدك أن تساعدني على جذب العلب من أعالي الرّفوف لأنّك طويل"

تركها تجوب المكان بحرّيّة وحيويّة ثمّ تناول العلب الّتي أشارت إليها قبل أن تبتعد عنه ورآها أثناء ذلك تنفق بسخاء ودون اكتراث للأسعار.

خرجا من المتجر محمّلين بالأثقال، وكان يفكّر في تلك المدّة بما سيقوم به. دسّ يده في كيسه الخاصّ وتناول علبة مغلقة يلفّها شريط ورديّ وتتوّج في قمّتها عقدة على شكل وردة، ثمّ قدّمها إليها.

"خذي هذه الهديّة لك!".

"ما هذا أحمد؟!"

لم يعرف إن كان ردّ فعلها هذا عدم ارتياح منها أم تعبيرًا عــن سرورها. ولكنّه ترك الثّواني المقبلة لتقرّر ذلك. همّت بنزع الشّريط، ثمّ الغلاف، وأخيرًا نزعت الغطاء عن العلبة. وضعت يدها على تَريبَة صدرها، وانفرجت شفتاها.

"أووه... شكرًا لك".

داعبت أناملها الرّقيقة قلادة فضّيّة كانت داخل العلبة. حدّقت فيها بإعجاب.

"إنّها جميلة جدًّا. شكرًا لك"

تناولتها بين يديها في سرور لم تستطع مداراته. واصلا طريقهما في هدوء، حتّى بلغا الشّارع الرّئيسيّ، ثمّ توقّفَ كلاهما إيذانًا بالانصراف ووجوب تبادل كلمات تليق بالموقف.

لم يقولا شيئا بالتّحديد. فقط اكتفا بالابتسام، فقد وجدا في الصّمت خير مترجم لمشاعرهما. طلب لها سيّارة أجرة واقترب موعد فراقهما. وقبل أن تصعد إلى السّيّارة، التفتت نحوه في جرأة لم يعهدها فيها من قبل، ورآها تعبث بأصابعها داخل حقيبة اليد، تناولت منه شيئا ثمّ وضعته في كفّه وغادرت المكان.

وقف وحيدًا في مكانه، يشيّع السّيّارة بناظريه، رآها تبتعد مسرعة عبر الطّريق. مخلفة وراءها ألما رهيبا، ألم يشقى الإنسان من أجله، ألم جميل يدعى الحب. كان يعيش لحظة سكون داخلي، مصفاة من بياض عينيها ورائحة جسمها، تغذيها البسمات والنظرات الحارقة. لحظة بلحظة وكما يغفوا النائم من حلم جميل، بدأ يحس بشيء داخل قبضته، ناعما وباردا. بسط كفّه مرّة أخرى.

كان الخاتم في كفّه لامعًا تحت تأثير أشعّة الشّمس الذّهبيّة.